٤٠- العيني، بدر الدين، عمدة القاري شرح البخاري، نشر مصطفى البابي الحلبي، ط١.

٤١- الغزالي، إحياء علوم الدين، مصر، مطابع الحلبي، ١٣٥٨ هـ.

٤٢- القاضي أبو يوسف، الخراج، نشر قصي محب الدين الخطيب، ط٦، المطبعة السلفية، ١٣٩٧هـ.

٤٣- القرطبي، ابن عبد البرّ، جامع بيان العلم وفضله.

٤٤- القزويني، ابن ماجه، السنن، تحقيق عبد الباقي، مجلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٥م.

٤٥- ابن قيّم الجوزية، إعلام الموقعين، ط٢، مصر، مطابع السعادة، ١٣٧٤ هـ.

٤٦- ابن قيّم الجوزية، زاد المعاد، ٤ أجزاء في مجلدين، دار إحياء التراث العربي.

٤٧- الكاساني، بدائع الصنائع، ١٠ مجلدات، القاهرة، الناشر زكريا يوسف.

٤٨- الكلبي الغرناطي، ابن جزيّ، القوانين الفقهية، طبعة جديدة، دار الفكر.

٤٩- مالك بن أنس، الموطأ، تخريج عبد الباقي، مجلدان، بيروت، دار الكتب العلمية.

٥٠- المتقي الهندي، كنز العمال، ت. بكري حياتي، ط٥، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م.

٥١- المرغيناني، الهداية، المرغيناني، ٤ أجزاء بمجلدين، مصطفى البابي الحلبي.

٥٢- المقدسي، ابن قدامة، المغني، ت. د. خطاب ورفاقه، ط١، القاهرة، دار الحديث، ١٩٩٦م.

٥٣- المناوي، فيض القدير، شرح الجامع الصغير، ط٢، بيروت، دار المعرفة.

٥٤- ابن منظور، لسان العرب،١٥مجلداً، ط٢، بيروت، دار صادر.

٥٥- الموصلي، الاختيار لتعليل المختار، مجلدان، تحقيق ومراجعة زهير عثمان الجعيد، ط١، دار الأرقم-، بدون.

٥٦- الندوي، القواعد الفقهية، تقديم مصطفى الزرقا، ط١، دمشق، دار القلم، ١٩٨٦م.

٥٧- النسائي، السنن، بشرح السيوطي، ٨ أجزاء،، القاهرة، دار الحديث،١٩٨٧م.

٥٨- النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، دار الفكر.

٥٩- النووي، المجموع للنووي، تحقيق بخيت المطيعي، ٢٣ مجلداً، مكتبة الإرشاد، جدة.

٦٠- الهيثمي، مجمع الزوائد، ط٣، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م.

الفردية والجماعية في المذاهب الاقتصادية

(دراسة مقارنة بين النظام الإسلامي والنظامين الرأسمالي والشيوعي)

إعداد
د/ عبد الجبار محمد قائد الصبري
كلية الآداب - جامعة الحديدة

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ ... وبعد:

فإن الحديث عن الفردية والجماعية في الإسلام مقارنة بين النظامين الرأسمالي والشيوعي تضطرنا إلى أن نطوِّف في عالم المذاهب المشهورة (العالمية).

فكانت الفكرة أن أتحدث عن الرأسمالية كنظرية اقتصادية، وأتناولها بالدراسة والنقد والتحليل؛ كونها تهتم بالفرد دون الجماعة، فتقدس دوافعه الذاتية وتعتبره المحور الذي يجب العمل لحسابه وضمان مصالحه الخاصة. وأتحدث عن الشيوعية كونها تهتم بالجماعة دون الفرد، فترفض الدوافع الذاتية والأنانية، فتفني الفرد في المجتمع، وتجعل المجتمع محوراً له، فلا تعترف بالحريات الفردية، بل تهدرها في سبيل القضية الأساسية، قضية المجتمع بأكمله. والإسلام هو النظام الوسط الوحيد الذي يعطي الفرد حقه، كما يعطي الجماعة حقها بتوازن وتوافق عجيب؛ بحيث لا يكون الفرد على حساب الجماعة، ولا تكون الجماعة على حساب الفرد، بل كل منهما يكمل الآخر دون أن يطغى أحدهما على الآخر.

ونظراً لما تعانيه البشرية اليوم من ويلات وجحيم الطغيان؛ والتهور من خلال أنظمتها المفروضة على النفوس السوية وغير السوية. فقد كان واجباً عليَّ توضيح خطورة مثل هذه الأنظمة التي تعتسف الحقوق الآدمية، وتطغى وتتجبر بالهيمنة والغطرسة والقوة الوحشية دون أدنى حق أو إقناع، أو دون حلول مريحة وإنما هي السيطرة والاستعمار بصور مباشرة أو غير مباشرة (الاستعمار القديم: الاستيطان، والاستعمار الحديث المعاصر: بصور شتى: الاستشراق والتبشير والقروض والبنوك الربوية، والتجارة والاقتصاد، وبرامج التربية والتعليم ووسائل الإعلام المختلفة، المرئية والمقروءة والمسموعة).

وهذه كلها قد جلبت الويلات والمهانات للإنسانية في هذا العصر الذي لا يعطي للإنسان قدراً ولا كرامة ولا عزة.وإنما تهينه وتذله بكل أنواع الإهانة والإذلال، وهذا كله ولا شك يتنافى مع حقيقة الفطرة السليمة والطبائع الحية النظيفة. ونتيجة لهذا كله فقد جلبت هذه الأنظمة العالمية كل الضياع والتيه والضلال لشعوب الأرض مما تسبب في كثرة مشاكلها وقلقها، وعدم استقرارها وثباتها على أنماط من الحياة سوية...!!

والأسباب معروفة وواضحة لكل ذي عقل ولب، وفطرة طاهرة نقية. أنه النظام البشري الذي يعتمد على الهوى والأمزجة دون المرجعية لخالق هذا الوجود وما فيه من عوالم، الذي هو أعلم وأدرى بمصالح العباد في كل هذه

الأرض، (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير[١]). ولا أدل على ما سبق ذكره من انهيار المنظومة الاشتراكية المتمثلة بالدول الشيوعية وعلى رأسها الدولة التي تتباهى بنفسها-الاتحاد السوفيتي-هذه الدولة التي تفككت تفككاً مريعاً ما كان متصوراً أن يحدث ذلك في عالم العقول البشرية المحدودة ولكنها سنة الله الجارية على كل شيء، يخل بالتوازن والاتزان، والتوسط والاعتدال...

وها نحن أولاء نلمس علامات وبشائر سقوط الرأسمالية وفي مقدمتها أمريكا، بدليل جنونها وتخبطها ومزاولتها المغرور تجاه العالم من خلال تصرفات تنبئ عن خطورة حالتها وسوء نهايتها المأساوية، مثل تجويعها لشعوب العالم بفرض الحصار عليها؛ والضرب والاحتلال والتهديد لها بصورة بغيضة وعنجهية حاقدة، وما سقوطها وانهيارها على الله بعزيز، وهاهي الأزمة الاقتصادية العالمية تظهر عور هذه الأنظمة الاقتصادية وهشاشتها والتي تتصادم مع النظام الرباني(وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد[٢]). (وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون[٣]). (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين[٤]). (وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً وكلاً ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً[٥]).

هذه هي نهاية الباطل في أي زمان ومكان، وتتمثل هذه الحقيقة الناصعة في قوله تعالى: (كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال[٦]). وهذا كافٍ للاتعاظ والعبرة وأخذ الدرس من أرض الواقع ودنيا الناس. ومن هنا فقد جاء هذا الموضوع على النحو التالي:

المبحث الأول: الفردية: وقد تحدثت فيه عن الرأسمالية، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: ماهية الفلسفة الرأسمالية.

المطلب الثاني: العوامل التي أدت إلى الفكرة الرأسمالية.

---

[١] سورة الملك، آية (١٤).

[٢] سورة هود، آية (١٠٢).

[٣] سورة الأعراف، آية (٤).

[٤] سورة القصص، آية (٥٨).

[٥] سورة الفرقان، آية (٣٨-٣٩).

[٦] سورة الرعد، آية (١٧).

المطلب الثالث: مدى تدخل الدول في المجتمعات الرأسمالية.
المطلب الرابع: ويلات الرأسمالية.
المبحث الثاني: الجماعية: وقد خصصته للحديث عن الشيوعية، وفيه أربعة مطالب:
المطلب الأول: الفكرة الشيوعية.
المطلب الثاني: العوامل التي أدت إلى الفكرة الشيوعية.
المطلب الثالث: مدى تدخل الدولة في النظام الشيوعي.
المطلب الرابع: ويلات الشيوعية.
المبحث الثالث: تحدثت فيه عن وسطية الإسلام، وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: نظرة الإسلام إلى الفردية والجماعية.
المطلب الثاني: أثر تلك النظرة على الحياة والناس.
المطلب الثالث: شهادة الفطرة والواقع على عدل الإسلام وجور المذاهب الأخرى.
أما الخاتمة: فقد جاءت مُبيِّنة خلاصة هذا البحث ونتائجه.

المبحث الأول: الفردية والنظام الرأسمالي:

لقد سمعنا كثيراً عن الرأسمالية وعن الدول التي تمارس تطبيق(النظام الحر)وعن المشكلات التي تعاني منها هذه الدول سواء المشاكل الاجتماعية أو الاقتصادية، كالاحتكار والبطالة والربا والتسلط الفردي وغير ذلك من المشكلات التي لا حصر لها ولا عد..ونظراً لشيوع هذا النظام وهذه الفكرة في طول البلاد وعرضها وغرام الناس بها وتعلقهم بها، فأردت توضيح بعض الأمور المتعلقة بهذه الفكرة على ما يأتي:

المطلب الأول: ماهية الفلسفة الرأسمالية:

الرأسمالية هي المخطط الكامل الذي ابتدعته السلبية في العقل البشري لتنظيم وإدارة وتوجيه الغريزة البشرية في أحط أدوارها الهمجية، لذلك تعتبر الرأسمالية هي الحيوان التي ينظمها العقل، إذ أنها تمثل طمعاً واعياً ونهماً يقظاً يعرف أهدافه ويعرف الوسائل التي يسلكها إليها، وشراهة تتغذى بالواقع وتهتدي بنور العقل، وأثرة ضيقة خانقة.إنها في اختصار أرقى الدرجات التي وصل إليه العقل الحيواني في الإنسان[1]

فالفلسفة الرأسمالية تقوم على أساس الإيمان بالإنسان من حيث هو إنسان ومن حيث هو الأساس الذي يقوم عليه صرح المجتمع. والرخاء الاقتصادي

[1] فتحي يكن، حركات ومذاهب في ميزان الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٠، ١٩٨٣م، ص٤٢.

والتقدم لا يقومان في ظل الرأسمالية على أساس ما تحتكره الدولة من أموال ومنشآت، بل على أساس النشاط الذي يقوم به الأفراد والقوى السياسية التي تتمتع بها الدولة في المجتمع الرأسمالي؛ لا تأتي مما يتجمع في يد السلطة الحاكمة من قوة ونفوذ ومصادرة للحريات بل مما وفرته للمواطنين فيها من حريات وضمانات.

فالفلسفة الرأسمالية ليست فلسفة مكتوبة أو نظرية مشروحة، وإنما هي مجموعة من الأفكار توصلت إليها المجتمعات الغربية بعد الإصلاح وهي تقوم على أساس الفردية والترسل، وعلى أساس النشاط الفردي والمبادرة الفردية المعتمدة على المغامرة والذكاء الفردي وعلى أساس التنافس بين الأفراد والمؤسسات.

- **الصراع بين العقل الحيواني والعقل الإنساني:**

في ظل النظام الرأسمالي تنعدم حتى الفضائل القليلة التي عرفها مجتمع الإقطاع، فضائل النخوة والشهامة والفروسية..لذلك يبلغ في النظام الرأسمالي الصراع بين العقل الحيواني والعقل الإنساني في الإنسان ذروته. ويتخذ المجتمع من الغابة مظهرها وجوهرها، فلا حياة إلا للأقوى، ولا وجود للضعيف.

أما أم الفضائل ومنبعها في ظل النظام الرأسمالي فهي: الربح بأي وسيلة كانت أو سبب.

والرأسمالية لا تتغذى من دماء الشعب فحسب، بل يلتهم الرأسماليون بعضهم بعضاً. وللرأسمالية قوانين رهيبة تسير بموجبها وتطبيقها على كل نشاطاتها وهي:

١- قانون البحث عن الربح: النظام الاشتراكي يحصر غاياته الاقتصادية في سد احتياجات البشر، بينما يوجه النظام الرأسمالي الاقتصاد نحو تحقيق الأرباح واختبائها وتكديسها في صناديق أصحاب المشروعات. وتبدأ الرأسمالية أول ما تبدأ في تطبيق هذا القانون على المجتمع الذي تنشأ فيه وتنشط، ويكون أول ضحايا هذا القانون العمال والمستهلكون، إذ أنها تسعى أبداً إلى زيادة أرباحها على حساب الأجور..ويدفع قانون البحث عن الربح بالرأسماليين وبالدول الرأسمالية إلى التفتيش عن الربح في كل قطر وبلد من أقطار العالم.

٢ قانون المزاحمة: إن الرأسماليين لا يعيشون على دماء الطبقة العاملة ويتغذون بلحوم سكان المستعمرات فحسب، بل إنهم يلتهمون بعضهم بعضاً أيضاً. فكل مشروع صناعي يجد في مثيله من المشروعات

الصناعية منافساً ومزاحماً، لذلك يسعى بكل ما أوتي من جهد لتصفية هذا المشروع والاستئثار بالزبائن والأسواق. وذلك كله حباً باجتناء الأرباح[١].

ونحن إذا ما أردنا أن نفتش عن أسباب جميع الحروب منذ أن عرف التنظيم الرأسمالي للمجتمع والدولة، فإننا نرد أسباب كل حرب إلى هذا القانون –قانون المنافسة والمزاحمة-[٢].

٣ قانون التمركز على الإنتاج وحصره: إن قانون المنافسة الذي يدفع بالشعوب والأمم إلى خوض غمرات الحروب من الرأسمالية والرأسماليين، يدفع أيضاً بالشركات إلى الاصطراع والصراع بعضهم ضد بعض، إذ تحاول الشركات الكبيرة تصفية الشركات الصغيرة والمتوسطة، وذلك إما عن طريق ابتلاعها بشراء أكثرية أسهمها، أو عن طريق منافستها منافسة شديدة تؤدي بالتالي إلى إفلاس الشركات الصغيرة أو المتوسطة ومن ثم انهيارها كلياً. وكذلك المصارف تلعب دوراً كبيراً في تحقيق أغراض الشركات الكبرى للتخلص من الشركات الصغيرة أو المتوسطة، حيث تقوم المصارف بمنع القروض عن الشركات الصغيرة والمتوسطة، وتطالب هذه الشركات بدفع ما عليهم من ديون فيكون الإفلاس.

٤ قانون السعر المنخفض: هذا القانون يقوم على التوسع الميكانيكي في الإنتاج والحد من اليد العاملة. فينشأ عن ذلك انخفاض في تكلفة السلعة بعدم دفع أجور للعمال التي استغنت عنهم وحلت الآلة محلهم، فينخفض سعر السلعة بدون أن يؤثر ذلك على أرباح الرأسماليين[٣].

المطلب الثاني: العوامل التي أدت إلى ظهور الفكرة الرأسمالية:

هذه الفكرة تعود إلى كتاب ومفكري الإصلاح الأوروبي[٤] التي ظهرت ما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر وما تلاه من عصور ممن حرصوا على التأكيد بأن الفرد قوة اجتماعية ضرورية ونافعة.

---

[١] فتحي يكن، حركات ومذاهب، ص٤٢-٤٣.

[٢] المصدر نفسه، ص٤٢-٤٤.

[٣] المصدر نفسه، ص٤٥.

[٤] أمثال أصحاب المذهب الحر(الطبيعي): كفرنسوا كيزي١٦٩٤-١٧٧٨م.وجون لوك١٦٣٢-١٧٠٤م، وتورجو، و ميرابو، وجان باتست ساي، وباستيا. وكأصحاب المذهب الكلاسيكي: كآدم سميت١٧٢٣-١٧٩٠م.ودايفد ريكاردو١٧٧٢-١٨٢٣م.روبرت مالتوس١٧٦٦-١٨٣٦م.وجون استيوارت١٨٠٦-١٨٧٣م-الذي يعدّ حلقة اتصال بين المذهب الفردي والمذهب الاشتراكي-.واللورد كيز١٨٨٣-١٩٤٦م-صاحب نظرية البطالة

وكانت الفردية المتطرفة هي رد الفعل لذلك الضغط العنيف الذي كانت تمارسه الكنيسة والإقطاع والسلطات الحاكمة على الفرد وحريته وتفكيره حيث صارت الكنيسة في القرن الثالث عشر الميلادي مثلاً أكبر ملاك الأراضي وأكبر السادة الإقطاعيين في أوروبا(وصارت جزءاً لا يتجزأ من النظام الإقطاعي وجعلت نفسها منظمة سياسية واقتصادية وحربية لا منظمة دينية وكفى[١]).

وصارت الكنيسة فرعاً من الحكومة الدنيوية . أو صارت الحكومة الدنيوية فرعاً منها حتى صار الاختلاف في العقيدة يعد خيانة، وصارت حرية العقيدة تعد مخالفة سياسية وصارت هذه القوى الحاكمة تتعاون (للضغط) على الإنسان الفرد لمصلحتها جميعاً[٢].

-أثر اتصال الغرب بالشرق:

كان اتصال الغرب المتخلف الجامد بالشرق المتقدم المتحضر عن طريق ما يصطلح الدارسون على تسميته(بمعابر الحضارة)التي من خلالها أخذت المدنية الإسلامية تشق طريقها إلى غرب أوروبا منذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد[٣]. والتي كان من أشهرها الأندلس والحروب الصليبية والتجارة، والكتب العربية المترجمة، كان لهذا الاتصال أثره في أوروبا في إحداث التمرد على السلطة وعلى القانون وعلى الكنيسة وما تقدمه من علم وما تفرضه من جمود، وقد تمثل هذا التمرد في ظهور موجة من الإلحاد والهرطقة ووضوح الحاجة إلى التوفيق بين الأفكار والمعتقدات الدينية الرئيسية والاهتمامات الدنيوية المختلفة، أو بعبارة أخرى، ضرورة التوفيق بين مطالب الإيمان ومطالب العقل الإنساني[٤].

وقد بذل(توماس الأكويني١٢٢٥-١٢٧٥م)جهوداً ضخمة بهدف التوفيق بين الاعتقاد المسيحي والعقل الإنساني فابتكر تفسيراً جديداً لمذهب الفردية عند

والتشغيل-.ودافيد هيوم١٧١١-١٧٧٦م-صاحب نظرية النفعية-.وأدمون برك.انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي،ط٢-١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.٢٣١-٢٣٣.

[١] د.عبد الغني عبود، الإيديولوجيا والتربية، دار الفكر العربي، القاهرة-١٩٨٠م-، (الفصل السادس)، ٢٠٣.

[٢] فتحي يكن، حركات ومذاهب، ص٤٥.

[٣] د.سعيد عبد الفتاح عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية ط١، ١٩٦٣م. ومحمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق القاهرة، ط٤، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م،٧٠.

[٤] د.وهيب إبراهيم سمعان، الثقافة والتربية في العصور الوسطى، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات في التربية، دار المعرفة، مصر١٩٦٢م، ص٩٦.

أرسطو، وبذلك حول الغزو الفكري الإسلامي بحيث أجراه في اتجاهات شخصانية وهكذا مهد الطريق على غير قصد منه لحركة الإصلاح في البروتستنتي[١]. وانتشر هذا(الفكر)الجديد من خلال الكنيسة ذاتها وفي مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرائيات وهي أشهر المدارس في تلك العصور الوسطى. كما انتشر في الجامعات وهي تلك المراكز الثقافية التي تذكرنا بمدارس أفلاطون وأرسطو التي أخذت تتكاثر في مدن أوروبا الكبرى منذ القرن الثالث عشر، والتي-وإن تك-لم تتحرر تماماً من وصايا الكنيسة؛ كانت مع ذلك التفتح الأول للعلم الحر وهي التي كونت الحركة الفنية والفكرية التي عرفت فيما بعد بحركة الإصلاح.

وهكذا يمكن لمن يطالع تاريخ أوروبا الديني وتاريخ الكنيسة النصرانية أن يتلمس تأثير الإسلام العقلي في نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفي السائد، أما دعوة (لوثر) الإصلاحية الكبيرة فقد كانت على علاتها أبرز مظهر التأثر بالإسلام وبعض عقائده كما اعترف المؤرخون بذلك[٢].

والحق ما شهدت به الأعداء. ثم بعد ذلك يظهر لنا جلياً التنكر للأصل والمنبع الذي أخذوا عنه ومنه ولكن ماداموا يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم تلاميذ لهذه المنابع الأصلية؛ التي أخذوا منها فلا يضر.

وقد هوجمت(الحركة المدرسية)التي تزعمها توماس الأكويني وأتباعه على أساس أنهم يضيعون الكثير من الوقت والجهد في الجدل المنطقي والميتافيزيقي لا احتراماً للعقل الإنساني ولكن تحايلاً عليه ليضل على إيمانه القديم بالكنيسة ومعتقداتها. وقد تزعم هذه الحركة الفكرية الجديدة العلماء الأوروبيون الذين تعلموا على يد العرب أو تأثروا بمنهجهم أو قرأوا لهم أو اتصلوا بالفكر اليوناني القديم عن طريق الترجمة العربية الدقيقة له من أمثال: (روجر بيكون:١٢١٤-١٢٩٢تقريباً)الذي كان قد اطلع على بحوث الحسن بن الهيثم وتأثر به وبمنهجه العلمي؛ الذي ألقى بنفسه بحماسة بالغة في تيار العلوم الرياضية والتاريخ الطبيعي والفلسفة[٣].

وكان ذلك هو منشأ الفكرة أو الفلسفة الرأسمالية التي تقوم على الفردية، وعلى احترام تلك(الفردية) حيث ظلت الفردية هي الظاهرة التي يدور حولها التفكير الغربي على الأقل منذ القرن الثامن عشر.

---

[١] رالفبت فلوولنج، الفلسفة الشخصانية (فلسفة القرن العشرين) ترجمة عثمان نوية، مجموعات مقالات في المذاهب الفلسفية المعاصرة، ١٩٦٣م. و د.عبد الحليم محمود، أوربا والإسلام، دار الشعب، القاهرة، ٢٤-٢٨.

[٢] أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار القلم الكويت،ط١٣-١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ١٣٩.

[٣] د.وهيب سمعان، الثقافة والتربية، ١٠٨.

وكانت هذه الفردية هي رد الفعل الطبيعي لذلك (التحكم) في (الإنسان) الأوروبي قروناً طويلة قبل تفجر ثورة الإصلاح وكان هذا التحكم تمارسه الكنيسة ورجالها.ويمارسه الحكام، ويمارسه النظام الإقطاعي القديم الذي قامت ضده الثورات في كل مكان في أوروبا؛ نتيجة الضغط والقهر الذي كانت تقوم به هذه الكنيسة وجلاوزتها ضد من يخالفهم أو يقف ضدهم أو في وجوههم.

-ازدهار الفكرة الرأسمالية وبداية ظهور الديمقراطية والثورات:

ظهرت الفكرة الرأسمالية في الغرب كرد فعل للضغط والكبت الذي تمارسه كل السلطات الحاكمة أو المتحكمة في المجتمع ضد الفرد.

وازدهرت هذه الفكرة كنتيجة لاتصال الغرب المتخلف بالشرق الإسلامي المتحضر ووقوف الغربيين على نواحي الحياة المختلفة التي يحياها الإنسان في الشرق تحت الحكم الإسلامي.

من هنا كانت الفكرة الرأسمالية فكرة إنسانية قبل أن تكون مجرد نظرية اقتصادية وكان محورها هو الإيمان بالفرد والإيمان بقدراته وإمكاناته. وقد كان لهذه الفكرة الإنسانية صداها في الفكر الديني في أوربا فكانت حركة الإصلاح البروتستنتي التي تضع (الخلاص) في يد الإنسان، وتجعل العلاقة بين الإنسان وربه علاقة مباشرة بعد أن كانت الكنيسة(تحتكره)وتجعل رجل الدين المسيحي يتوسط تلك العلاقة.

وثمة من يرى أن جون لوك (١٥٦١-١٦٢٦)المفكر والفيلسوف الإنكليزي وهو من جماعة البيوريتان ممن اشتركوا في الثورة على الحكومة الإنكليزية الاستبدادية في مطلع القرن السابع عشر في أثناء الحرب الأهلية، كان يقف بآرائه وراء ما تفجر في أوروبا من ثورات (إنسانية).

فحركة التحرير الكبرى التي سادت أوروبا في القرن الثامن عشر؛ لم تكن سوى امتداد طبيعي لفلسفة(لوك) تلك الفلسفة التي تقوم على احترام القيم الإنسانية والحرية الفردية الذي كان قد انطمست شخصيته في ظل استبداد الكنيسة وتلاشت حقوقه وانصهرت في نار من طغيان الملوك فأصبحت حياته كلها واجبات بلا حقوق[١].

فقد كان ذا تأثير في فلاسفة التحرير الفرنسيين مثل: فولتير وموتسكيو وجان جاك روسو.

[١] د.محمد عبد الرزاق، تاريخ التربية-دراسة تاريخية ثقافية اجتماعية- دار النهضة العربية، ١٩٦٨م، ٢٩٢.

فقد تبنى فولتير أفكار روسو: ومنها الحرية والتسامح. وظل طوال حياته يهاجم كل تعصب وينادي بالحرية، بينما أخذ موتسكيو عن لوك نظريته في فصل السلطات، وأخذ روسو عنه نظرية العقد الاجتماعي[١].

وكان لهذه الفكرة(الإنسانية)صداها في الفكر(السياسي)فكانت الديمقراطية وكانت الثورات المتتالية على الاستبداد والظلم والثورات الدموية كالثورة الفرنسية. وقد بلغت هذه الثورات ذروتها عام(١٨٤٨م)الذي أطلق عليه(عام الثورات)لأن الثورات اجتاحت بلاد أوروبا كلها فيه.

وكان لهذه الفكرة(الإنسانية) التي بدأت شرارتها من الفكر الإسلامي-من خلال احتكاكهم بالعالم الإسلامي عن طريق مدارس المسلمين في الأندلس وغيرها؛ أو من خلال الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي، فيما وجدوه من قيمة حقيقية للإنسان في دين الله تعالى، واستفادته أوروبا منه[٢]- في ثقافة مفكري الغرب صداها في الفكر الاقتصادي. فكانت الحرية الاقتصادية، وكانت المنافسة، وكان الصراع بين الأفراد والهيئات بعيداً عن تدخل الدولة التي تولت سن قوانين لتنظيم العلاقة بين المتنافسين.

المطلب الثالث: مدى تدخل الدولة في المجتمعات الرأسمالية:

حينما اتجهت دول الغرب إلى الاستعمار في القرن التاسع عشر صار تدخل الدولة ضرورياً من ناحية الأمن القومي، لأن الأمر ارتبط بفكرة القومية وصراع الدول الأوروبية القومية للحصول على المستعمرات لتحصل منها على المواد الخام وتستغلها كأسواق لمنتجاتها.

ولكن رغم تدخل الدولة في المجتمعات الرأسمالية في الشؤون الاقتصادية إلا أن هذا التدخل كان بدرجات تختلف من مجتمع رأسمالي إلى آخر حسب الظروف الخاصة بكل مجتمع رأسمالي وما تفرضه هذه الظروف من تحديد حجم هذا التدخل ورغم هذا التدخل ظل الأساس كما هو(حرية الفرد)، و(المغامرة الفردية).

والدولة لا تتدخل إلا للضرورة وبمقدار[٣]، وكان لهذه الفكرة(الإنسانية)مداها في الفكر(الاجتماعي)وفي الفكر الأخلاقي، فقد انتشر روح الإصلاح على تعبير هستون في كل مجال: (لقد وجدت روح جديدة في السياسة وفي المجتمع وفي العلم والفلسفة والدين وفي الأدب والفن[١]).

---

[١] المصدر نفسه، ٢٩٢-٢٩٣.

[٢] محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، ١٤٨.

[٣] د.عبد الغني عبود، الأيدلوجية والتربية، ٢٣١.

وكان أهم تغيير تم في نظره هو التغيير الأساسي في اتجاه الناس نحو أنفسهم ونحو عالمهم الذي يعيشون فيه.أي أن الأيدلوجية الفردية والاجتماعية في أوروبا قد تغيرت تغيراً جذرياً نتيجة لهذه الفكرة (الإنسانية)؛ فبظهور الإصلاح أصبحت الحياة ديناميكية، وأصبحت سعياً وعملاً وأن (العلم والثروة) والتكنولوجيا هي فضلاً عن أنها أسباب إنما هي نتائج مباشرة لهذه الحقيقة[٢].

-الارتباط والتزاوج بين العلم والصناعة:

لقد كان الإصلاح تحولاً أيدلوجيا وكان هذا التحول الأيدلوجي عميقاً بحيث استغرق وقتاً طويلاً اختلف في طوله من مجتمع أوروبي إلى حيث كانت شعوب أوروبا تتفاوت فيما بينها في درجة اتصالها وتأثرها بحضارة المسلمين وفي درجة ميلها إلى المحافظة أو رغبتها في التجديد ،ولذلك فإن تحديد تاريخ معين لبدء الإصلاح مستحيل، فقد انتهت العصور الوسطى في أوقات مختلفة ليست فقط في الدول بل وفي ميادين النشاط المختلفة أيضاً، وإن كان ذلك عموماً قد تم في الفترة الواقعة بين القرنين الرابع والسابع عشر وكانت(النهضة)هي ثمرة هذا التحول الأيديولوجي العميق بعد أن صار حقيقة واقعة.

وقد رفع هذا التحرر الذي حصل عليه الإنسان الأوروبي بهذا الإنسان إلى النشاط والحركة فراح يفكر ويكتشف ويخترع ويترجم التفكير والكشف والاختراع إلى تكنولوجيا.

ومن هنا بدأ التزاوج والارتباط بين العلم والصناعة.فالعلم يحتاج إلى الصناعة لتزوده بالمال وبالأدوات والمعدات والمعامل والمكتبات، ولتزود العاملين فيه بالمساندة والتأييد والتشجيع. والصناعة هي الأخرى تحتاج إلى العلم وإلى البحث العلمي لتنمو وتزداد قدرتها على المنافسة وعلى كسب أسواق جديدة وعلى زيادة كسبها وربحها.

وقد كانت الثروة الصناعية هي ثمرة التزاوج بين العلم والصناعة في ظل الأيديولوجية الرأسمالية. وقد أدت الثروة إلى بزوغ طبقة رأسمالية جديدة تقوم على الصناعة وتؤمن بممكنات العلم وتستعين برجاله وتنفق عليهم إما كفاية وإما بذخاً، وأخذ العلم الجديد يرسخ في التربية الأوروبية وتعددت مؤسساته في معظم أنحاء أوروبا. وصار العلم لأول مرة في تاريخه منذ القرن السادس عشر وسيلة يسيطر به الإنسان الأوروبي على العالم الذي يعيش فيه، وزادت قوة هذا

---

[١] المصدر نفسه، ٢٠٧.

[٢] المصدر نفسه، ٢٠٨.

العلم بشكل واضح نتيجة التزاوج بينه وبين الصناعة ونما في هذا المجال نمواً كبيراً في القرن السابع والثامن عشر.

ومنذ أن تحقق هذا التزاوج بين العلم والصناعة الذي بلغ ذروته في القرن الثامن عشر تحقق للغرب في ظل الرأسمالية تلك الانطلاقة الكبرى في جميع مظاهر الحياة الحديثة وإنجازاتها.فهي كلها ثمار مباشرة أو غير مباشرة للعملية الرأسمالية حيث أقيمت في ظل الرأسمالية المعامل والمصانع وأنشأت السكك الحديدية وبنيت السفن الكبيرة فازداد الإنتاج عشرات ومئات الأضعاف مما كان عليه في الفترة ما قبل المرحلة الرأسمالية وكانت هذه المنجزات نتيجة الاكتشافات العلمية والاختراعات التكنيكية(التقنية)وإتقان مناهج الإنتاج[١].

-الرأسمالية وحرية الاقتصاد:

بدأ الجانب الاقتصادي في (الحرية) يطغى على بقية الجوانب في الأيديولوجية الرأسمالية بعد أن كان مجرد جانب واحد من هذه الحرية التي حققتها ثورة الإصلاح الديني في أوروبا بحيث صارت الرأسمالية لا توحي في الذهن إلا بهذا الجانب الاقتصادي وما يؤدي إليه من صراع على الكسب والربح ومن تنافس في الحصول على المواد الخام والأسواق والخبرات الفنية ومن حروب لحماية المصالح الرأسمالية في خارج الحدود.ومن صراع بين العمال وأصحاب الأعمال ومن مكتشفات علمية لزيادة الإنتاج وخفض تكلفته ومن بحوث علمية للوصول إلى هذه المكتشفات وغير ذلك مما يعتبر هذا الجانب الاقتصادي مداره ومحوره.

وفي إطار هذه (الحرية) الاقتصادية التي طغت على سائر الحريات في الأيديولوجية الرأسمالية تحركت الحرية السياسية ، والحرية الدينية ، والحرية الأكاديمية ، وسائر الحريات الأخرى[٢].

-اقتران الاستعمار بالرأسمالية التجارية والصناعية:

وفي ظل هذه الحرية الاقتصادية أيضاً اقترن الاستعمار بالرأسمالية التجارية والرأسمالية الصناعية. والرأسمالية التجارية هي التي سادت في أوروبا في القرنين السادس والسابع عشر وكانت فيها التجارة هي محور النشاط الاقتصادي، وفي مرحلة الرأسمالية الصناعية ظهرت تنظيمات إنتاجية جديدة على رأسها الشركات المساهمة وانتقلت الرأسمالية من رأسمالية الوحدات

---

[١] د.عبد الغني عبود، الأيدلوجية والتربية.وأبو الأعلى المودودي، أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة، مطبعة الأمان: درعون، لبنان، ط٣-١٣٩١هـ-١٩٧١م، ٣١-٣٦.

[٢] محمد باقر الصدر، فلسفتنا، دار الفكر بيروت، ط٤، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، ٦٠٨-٦١٠.

الصغيرة أو رأسمالية المنافسة إلى رأسمالية الوحدات الكبيرة أو رأسمالية الاحتكارات، وبظهور الاحتكارات اتسع نطاق الاستعمار وتطورت الرأسمالية الأوروبية إلى الرأسمالية الإمبريالية[١].

بيد أنه ليست الفكرة الرأسمالية على هذا النحو في كل المجتمعات الرأسمالية المعاصرة، فالبلاد الرأسمالية تختلف في نموها الاقتصادي بين الرأسمالية الغربية التي اكتمل نموها في الولايات المتحدة الأمريكية وفي بعض بلاد أوروبا المتقدمة كفرنسا وإنكلترا وبلجيكا وهولندا وغيرها..

والرأسمالية غير الغربية الموجودة في بلاد غير أوروبية ولكنها تسير في فلك الغرب كاليابان واستراليا. والرأسمالية الأخرى الموجودة في بلاد أخرى غير أوروبية وغير متقدمة ولكنها تختلف في تقدمها أو تخلفها كأثيوبيا والكويت والسعودية ولبنان وتركيا، وجنوب أفريقيا وكوريا الجنوبية وغيرها.

والفكرة الرأسمالية في هذه البلاد غير المتقدمة قد لا تتعدى صور من صور الإقطاع القديم بكل مساوئه وشروره وقد تتعدى ذلك قليلاً فنجد بها صناعات بدائية متخلفة أو صناعات نامية محدودة.

ومثل هذه البلاد لا تزال الفكرة الرأسمالية فيها في طريقها إلى التبلور على نحو من الأنحاء[٢].

وهي بفعل العوامل التاريخية التي فرضت عليها التخلف وقت الانطلاقة الأوروبية الكبرى بعد الإصلاح تعيش مع غيرها من البلاد الأخرى في التقدم مرحلة من التغير والتبدل وعدم الاستقرار.

ومهما كانت درجة التقدم التي وصلت إليها هذه البلاد الرأسمالية غير المتقدمة أو الآخذة في التقدم فإنها شأنها في ذلك شأن أكبر البلاد الرأسمالية تقدماً تقيم الحياة فيها على ثلاث أسس وهي:

١. الإيمان بالفرد: وإن اختلفت درجة هذا الإيمان به فيها عنها في البلاد المتقدمة كما أن مواصفات هذا الفرد تختلف في مجتمع منها إلى مجتمع آخر، فقد يكون هذا الفرد ابن طبقة معينة من الناس، وقد
٢ يكون ابن جنس معين من الناس كما هو الحال في الواقع اليهودي، أو التمييز في اللون.
٣ توفر الحرية الاقتصادية والسياسية: وقد لا تتعدى هذه الحرية تعددية الأحزاب، وقد تتعدى ذلك كثيراً فتصل إلى حد التسيب الذي تعيش في

---

[١] د.سعد ماهر حزة، المقدمة في اقتصاديات التبعية والتنمية، تجارب أفريقيا وعربية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٧م، ١٥٦-١٥٧.

[٢] د.سعد ماهر حزة، المقدمة في اقتصاديات التبعية، ١٥٦-١٥٧.

ظله البلاد، وكأن الدولة فيها لا تعرف شيئاً عما يحدث داخل حدودها أو تعرف الكثير ولكنها لا تتدخل في شيء باسم الحرية.

٤ إقامة الحياة على الصراع والتنافس وتأكيد الفردية: وإن كان هذا الصراع قد يكون غير عادل في بعض هذه المجتمعات بسبب اتساع الهوة بين الغني والفقير مما يجعل هذا الصراع لوناً من ألوان(الانتحار)بالنسبة للفقير تكون نتيجته استعباد الغني للفقير واستئثاره دونه بكل خيرات المجتمع، ورغم ذلك فلا يزال الباب مفتوحاً في هذا المجتمع لكل فرد رغم قسوة الظروف حوله؛ سواء في باب الشفقة التي تدفع بعض ذوي القلوب الرحيمة إلى العطف على الفقراء النابغين سواء بصفة فردية أو بشكل جماعي عن طريق الجمعيات الخيرية التي يتعاون في إنشائها الأغنياء في هذه المجتمعات من أجل السمعة والشهرة والتغطية على ما يملكون من ثروات ومن استعباد للفقراء والمعدمين في هذه المجتمعات[١].

المطلب الرابع: ويلات الرأسمالية:

إن الرأسمالية لا يمكن أن تقوم وتأخذ صورتها الواسعة التي عليها اليوم بغير الربا والاحتكار، فقد بنيت على الديون التي كانت سبباً في إنشاء نظام المصارف التي تنظم العمليات الرأسمالية الكبرى، وتقرضها ما تحتاج إليه من الأموال لتشغيلها في مقابل ما تأخذه من (الفوائد الربوية) والأرباح.

كما تحطمت الشركات الصغيرة، أو اندمجت لتأسيس شركات كبيرة، وهذا أو ذاك يؤديان حتماً إلى الاحتكار في نهاية المطاف[٢].

ومادام أن هذا النظام يقوم على هذه الخصال الذميمة التي لا تراعي شيئاً من حقوق الآدميين، تستعبد أناساً وترفع آخرين، تُثخِمُ أفراداً وتميت جماعات وشعوباً مادام هذا الأمر كذلك فهي المأساة الحقيقية، وهو الويل العظيم. فمن المآسي والويلات التي تنتج عن هذا النظام: أن السادة الذين وضع النظام الديمقراطي الرأسمالي في أيديهم كل نفوذ، وزودهم بكل قوة وطاقة.. سوف يمدون أنظارهم-بوحي من عقلية هذا النظام-إلى الآفاق ويشعرون بوحي من مصالحهم وأغراضهم أنهم في حاجة إلى مناطق نفوذ جديدة وذلك لسببين:

١. إن وفرة الإنتاج تتوقف على مدى توفر المواد الأولية وكثرتها فكل من كان حظه من تلك المواد أعظم تكون طاقاته الإنتاجية أقوى وأكثر. وهذه المواد منتشرة في بلاد الله العريضة. وإذا كان من الواجب

---

[١] محمد قطب، شبهات حول الإسلام، دار الشروق، ط٦-١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ٧٦-٧٧.

[٢] شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر، دمشق، ط٥، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ٣٣٧-٣٣٨.

الحصول عليها فاللازم السيطرة على البلاد التي تملك المواد لامتصاصها واستغلالها.

٢. إن شدة حركة الإنتاج وقوتها؛ بدافع من الحرص على كثرة الربح من ناحية، ومن ناحية أخرى انخفاض المستوى المعيشي لكثير من المواطنين؛ بدافع من الشدة المادية للفئة الرأسمالية؛ ومغالبتها للعامة على حقوقها بأساليبها النفعية التي تجعل المواطنين عاجزين عن شراء المنتجات الفائضة فيها؛ وإيجاد تلك الأسواق يعني التفكير في بلاد جديدة.

وهكذا تدرس المأساة بذهنية مادية خالصة، ومن الطبيعي لمثل هذه الذهنية التي لم يرتكز نظامها على القيم الروحية والخلقية ولم يعترف مذهبها الاجتماعي بغاية إلا إسعاد هذه الحياة المحدودة بمختلف المتع والشهوات..أن ترى في هذين السببين مبرراً أو مسوغاً منطقياً للاعتداء على البلاد الآمنة وانتهاك كرامتها والسيطرة على مقدراتها ومواردها الطبيعية الكبرى واستغلال ثرواتها لترويج البضائع الفائضة. فكل ذلك أمر معقول وجائز في عرف المصالح الفردية التي يقوم على أساسها النظام الرأسمالي والاقتصادي الحر.وينطلق من هنا عملاق المادة ليغزو ويحارب، ويقيد ويكبل ويستعمر ويستثمر، إرضاء للشهوات وإشباعاً للرغبات.

فانظر ماذا قاست الإنسانية من ولايات هذا النظام؛ باعتباره مادياً في روحه وصياغته وأساليبه وأهدافه، وإن لم يكن مركزاً على فلسفة محددة تتفق مع تلك الروح والصياغة، وتنسجم مع.هذه الأساليب والأهداف كما أشرنا إليه سابقاً[١]؟!! وقدر بنفسك نصيب المجتمع الذي ينعدم فيه الإيثار والثقة المتبادلة، والتراحم والتعاطف الحقيقي، وجميع الاتجاهات الروحية الخيرة، فيعيش الفرد فيه وهو يشعر بأنه المسئول عن نفسه وحده، وأنه في خطر من قبل كل مصلحة من مصالح الآخرين التي تصطدم به. فكأنه يحيا في صراع دائم ومغالبة مستمرة لا سلاح له فيها إلا قواه الخاصة، ولا هدف له منها إلا مصالحه الخاصة[٢].

-طغيان الفرد:

يقول (فرنسوا كيناي)أحد فلاسفة الفكر الرأسمالي:(يجب أن يكون الأفراد أحراراً في العمل، وأن يسيروا وفق مصالحهم الخاصة، وأن يسمح لهم بمزاولة المهن التي يختارونها. وأن تترك لهم حرية الانتقال وحرية إجتناء الثروات

---

[١] محمد باقر الصدر، فلسفتنا، ٢٤-٢٥.

[٢] المصدر نفسه، ٢٥.

وحرية التصرف في مملكاتهم كما يرغبون، ولا يجوز أبداً للدولة أن تتدخل في نشاطهم[١]).

و من هنا فإن أبرز الظواهر التي يتمخض عنها النظام الرأسمالي ما يلي:

١. تملك الأفراد للأرض ولرؤوس الأموال ولمنابع الثروات.
٢. تكالب الأفراد في الحصول على الأرباح وابتكار شتى المشروعات والطرق التي تؤدي إلى ذلك سواء كانت مشروعات وطرقاً مشروعة أم غير مشروعة.
٣. العمل على نشر التجارة في أنحاء العالم وما يحققه ذلك من بسط سلطان النفوذ المالي والسياسي على المؤسسات الاقتصادية والحكومية بما يحقق مصالح الدول والمؤسسات الرأسمالية[٢].

ويتمادى الفرد في طغيانه كل يوم حتى أنه ليتمنى أنه يسحق شعوباً سحقاً حتى يحصل على المكاسب والأرباح ولا يضره الآخرون، حتى ولو كانوا من أقرب الناس إليهم يقول(كنت لن) أحد واضعي الرأسمالية: (إننا جميعاً في الشمال والجنوب نعمل في تجارة الرقيق الأبيض.وبقدر نجاح الشخص فيها يزداد احترامه.. وهذه التجارة أشد قسوة من تجارة الرقيق الأسود لأنها تفرض المزيد من العمل على عبيدها..وفي الوقت الذي لا تحميهم فيه ولا تسوسهم برفق تفاخر بأنها تفرض المزيد (أي من العمل)، (نعم إنه[أي العامل] بعد انتهاء عمل اليوم يصبح حراً؛ إلا أنه يظل يرزح تحت عبء العناية بعائلته وبيته؛ مما يجعل حريته سخرية جوفاء باطلة، في حين يبقى رب العمل حراً بالفعل؛ ويستطيع أن يتمتع بالأرباح التي جناها من عمل الآخرين دون اهتمام بمصلحتهم ورفاهيتهم[٣]).

-الاستعمار:

قلنا فيما مضى إن الاستعمار اقترن بالرأسمالية التجارية والرأسمالية الصناعية؛ لأن الرأسمالية التجارية والرأسمالية الصناعية هي التي سادت في أوروبا في القرن السادس والسابع عشر فكانت فيها التجارة هي محور النشاط الاقتصادي، وفي مرحلة الرأسمالية الصناعية ظهرت تنظيمات إنتاجية جديدة على رأسها الشركات المساهمة..وظهر الاحتكار، وبظهور الاحتكارات اتسع نطاق الاستعمار وتطورت الرأسمالية الأوربية.

---

[١] فتحي يكن، حركات ومذاهب، ٤١.

[٢] المصدر نفسه، ٤١-٤٢.

[٣] محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ٤٧٤.أورده نقلاً عن (كنت لن).

"لقد تعرض المجتمع الإسلامي في آسيا وأفريقيا للطابع الأيدلوجي للمجتمع الأوروبي، سواء الحديث منه في القرن التاسع عشر، أو المعاصر في القرن العشرين؛ ولم يكن لديه مناعة في رفضه وتحديه وعدم تقبله.

فتعرض للغزو الأوروبي من أجل الصناعة الغربية، منذ أثمر عهد النهضة الأوروبية ثمرته في التحرر والخلاص من سلطة الكنيسة؛ وفي استرداد الإنسان الأوروبي حرية الحركة في التجارة وفي شؤون المال على القوم، وحرية التفكير والتوجيه السياسي...

وكلما قوي المجتمع الأوروبي وتفوق صناعياً..كلما زادت رقعة استعماره في القارتين الأفريقية والآسيوية، وكلما زادت قبضته على ما تم استعماره منهما، وكلما اتسع نفوذه السياسي والاستغلالي فيما تسلط عليه فيهما..وبالتالي كلما زاد ضعف المجتمع الإسلامي الذي وقع تحت سلطة الاستعمار، واستقلاله، وتوجيهه..زاد ضعفه في التبعية والتقبل للقيادة الأوروبية الاستعمارية...

ويوم أن تحرك المجتمع الأوروبي لاستغمار القارتين الأفريقية والآسيوية، وعلى الأخص في القرن التاسع عشر؛ من أجل تقدم الصناعة الأوروبية وازدهار الاقتصاد الغربي..كان في قمة مجده بما أنجزه من الفصل بين الكنيسة والدولة واستقلاله بالسلطة الزمنية وبالحرية الفردية في التفكير، والتوجيه، وبالحرية السياسية..فاستصحب الاستعمار معه ما يستتبعه في الحكم والتوجيه والتشريع وما يستتبعه في الحكم والنظام الديمقراطي..والحزبية السياسية..والقومية ألا دينية. وما يستتبعه في القومية والتشريع: هو البعد عن الدين، وعن معايير السلوك.وما يستتبعه في الاقتصاد: هو النظام الرأسمالي، والاقتصاد الحر البعيد عن توجيه الدولة، فضلاً عن تدخلها فيه.

وكانت الدراسات الإسلامية في بحوث المستشرقين الأوروبيين في المعاهد والجامعات الغربية..هي دراسات سياسية توجيهية..استهدفت معاونة الاستعمار، ورجال الصناعة الغربية، والنظام الرأسمالي الغربي على العموم في التمكين من فرض التبعية على المسلمين وبقائهم في رضا أو في استسلام..في دائرة التبعية الأوروبية السياسية والاقتصادية والتوجيهية[1].

وهكذا نرى أن الاستعمار الأوروبي استصحب معه في حملته الظالمة على العالم الإسلامي سواء الآسيوي أو الأفريقي أو غيره كل النظريات والأفكار والمبادئ التي تهدم ولا تبني، فليس الغرض هو استعمار الأرض فقط، ولكن استعمار الأرض والإنسان وتسخير كل مقدرات الشعوب لإشباع جوعة الغرب

---

[1] د.محمد البهي، الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر مشكلات الأسرة والتكافل، دار الفكر طرابلس ليبيا،ط١، بيروت، ١٩٧١م، ٥١-٥٦.

الجائر الذي يدعي احترام حقوق الإنسان، ويبكي عليه بكاء التماسيح، فليست هذه الحملات الأوروبية من أجل تحرير الإنسان من الظلم كما يقولون ولكن من أجل إخراجهم من استعمار إلى استعمار آخر أشد وأنكى من سابقه.

-الآثار المرافقة للرأسمالية:

من الآثار المرافقة للرأسمالية أن هناك تنافراً متزايداً بين مستويات الدخول والثروات بين فئات الشعب المختلفة؛ فبينما تتضخم الثروة لدى طبقة واحدة نخبوية؛ فإنها تتضاءل بين يدي الطبقات المتوسطة والفقيرة.

وحسب إحصاءات عام (٢٠٠٧م)؛ فإن (٩٠٠) شخص على مستوى العالم يملكون(٣،٥)تريليون دولار، وقد تزايدت ثرواتهم في عام واحد بنسبة(٣٥%)، في المقابل هناك قرابة ثلاثة مليارات شخص يعيشون بأقل من دولارين يومياً.

وفي الشرق الأوسط -المسلم-يوجد (٦٨) ملياردير اً، وفي الدول العربية يوجد -حسب المعلن عنه-(٣٣) ملياردير اً، والتوقعات أضعاف هذا الرقم، وفي الوقت نفسه يعيش ثلث العرب-أي: (١٠٣) ملايين نسمة- تحت خط الفقر، ففي مصر مثلاً-حسب أرقام المسؤولين-يوجد (٢٠%) من الشعب فقراء، و(٢٠%) يعيشون تحت خط الفقر؛ وفي غزة يعيش(٥٢%) تحت خط الفقر-وهذه حالة خاصة لأنها تعيش تحت الاحتلال اليهودي-، وفي العراق يعاني من الفقر أكثر من ثلث السكان، وتبلغ النسبة في الجزائر (٤٠%)، وفي موريتانيا (٥٠%).

اللافت هنا أن [آفة] الفقر قد تمددت لتطول بعض شعوب دول غنية مثل: الخليج؛ حيث يعيش الألوف تحت خط الفقر، وبعض التقديرات تشير إلى نسبة مرعبة لا تقل عن (١٥%) من إجمالي السكان[1].

ومن هنا فإن الأنظمة والثقافات الرأسمالية المتابعة للغرب والقابعة في ظلاله سوف تنعكس عليها تداعيات الرأسمالية الغربية ولن تتوفر لها حتى العقود التي تمتّعت فيها دول الغرب بحلاوة الرأسمالية في توزيع الثروة تضمن تركُزها في أيدي نخبة من رجال الأعمال والأثرياء، بينما تتبخر لدى بقية الشعب، في المقابل تأتي طريق الإسلام سهلة وبسيطة-كما سيأتي معنا في الفصل الثالث -.

---

[1] مجلة البيان، كلمة العدد(تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)،السنة الثالثة والعشرون، العدد(٢٥٣)رمضان١٤٢٩هـ سبتمبر٢٠٠٨م،٥.

المبحث الثاني: الجماعية و النظام الشيوعي:

الفلسفة الشيوعية أو الاشتراكية أو الماركسية اللينينية عكس الفلسفة الرأسمالية، فهي فلسفة مكتوبة مشروحة تعود في أوصولها إلى أفلاطون في مجتمعه المثالي(اليوتوبيا) الذي سعى إلى تحقيقه والذي كان متأثراً فيما يكتبه عنه بالغوغائية والفوضى التي تعيش فيها أثينا والتي كانت ستؤدي في نظره- وقد أدت بالفعل-إلى اندحار أثينا.

(فالشيوعية كما يقال: ليست مذهباً جديداً ابتدعه كارل ماركس ورفيقه الفريديرك انغلز، وإنما هي إرهاصات أفكار ومحاولات إصلاحية أو تخريبية بعيدة؛ استطاع أن يصيغها كارل ماركس ورفيقه في قوالب فكرية جديدة تسلك فيها إلى الانتشار والذيوع[1]).

(والشيوعية تنظيم بقيادة يهودية، ذو هيمنة عقائدية، ووسائل تستدرج؛ مغرية بالشهوة الإباحية والنفعية الميكافيلية، وتسيطر بالاستبداد المطلق المقرون بالعنف الدموي، والإرهاب المعطل لطاقات الحرية العملية والفكرية. والهدف الغائي من هذا التنظيم هو تحقيق جانب من المخطط اليهودي العالمي الرامي إلى تدمير الأمم والشعوب والأديان وكل قيم في المجتمع البشري؛ تمهيداً لإقامة الدولة اليهودية العالمية التي يحلم قادة اليهود بأنهم سيصلون إليها، عن طريق مخططاتهم التي يعملون على تنفيذها بكل ما أوتوا من مكر وقوة[2]).

جعل واضعوا هذا المنهج الجديد(حقوق الملكية الفردية)هي الهدف الأول لحملتهم الشعواء، وقالوا: إنها هي المنشأ لجميع الشرور والجذر الذي تتفرع منه جميع المفاسد في الدنيا. أما أن تبقى الملابس والأواني وأثاث المنزل وما إليها من الأدوات الاستهلاكية الأخرى في ملكية الأفراد الشخصية، فلا بأس بذلك ولكن الأرض والآلة وما إليها من الأدوات التي تنتج الثروة للإنسان، فلا ينبغي أن تبقى عليها حقوق الملكية الفردية أبداً[3].

المطلب الأول: الفكرة الشيوعية:

النظرية الشيوعية دين رسمي متعصب لا يقبل الجدل ولا يسمح بالمنافسة وكل شيء في الدولة الشيوعية لابد أن ينبثق من العقيدة الماركسية ويتمشى معها فالعلم يجب تسخيره لتثبيت الفكر المادي بأزلية الكون ومادية الحياة.والأدب والفن لابد أن يلتزما بما سمي: "الواقعية الاشتراكية" ووسائل

---

[1] بشير العوف، اشتراكيتهم وإسلامنا، مؤسسة الإنتاج الطباعي، بيروت، ط١-١٩٦٦م، ١٣.

[2] عبد الرحمن حبنكة الميداني، الكيد الأحمر، دار القلم دمشق، بيروت، ط١، ٩.

[3] أبو الأعلى المودودي، أسس الاقتصاد،٦٢.

الإعلام شغلها الشاغل هو تمجيد النظرية وإطراء النظام والإطناب في شرح إنجازات الثورة والتشهير بمخالفيها.

والشيوعية أشد أنواع الاشتراكية عنفاً، وقد أنشأها كارل ماركس اليهودي[١] فأعلن عن آرائه الشيوعية؛ وكان واثقاً من انهيار النظام الرأسمالي، وأن نتيجة ذلك ستكون قيام(دكتاتورية الفقراء).وقد أعلن ماركس عن آرائه هذه في وثيقة معروفة باسم:(مانيفستوا الشيوعية).فالنظرية الماركسية تقوم على مبدأين أساسيين هما المنطقية والمادية الدياليتيكية أي على التفسير المادي للتاريخ،ولهذا سميت بالمادية التاريخية ذلك أنها تنظر إلى المادة على أنها أساس كل أمر في الحياة، وأن البشرية مسيرة في مختلف أطوارها بتأثير المادة فقط..[٢].

(كانت الشيوعية والاشتراكية أفكاراً مبعثرة، تظهر في كتابات بعض الكتاب الأوروبيين وغيرهم، وتنطلق على ألسنة طائفة من الذين تصوروا أن خلاص الطبقات المقهورة المستغلة وفي ظل النظم الإقطاعية والرأسمالية إنما يكون بتطبيق الشيوعية التي تحتل أقصى الطرف المقابل أو بتطبيق الاشتراكية المتوسطة. واتجهت أفكار قسم منهم إلى منهج الإصلاح التدريجي غير طريق العنف ورأى آخرون أن التغيير لا يكون إلاّ مقروناً ببعض وسائل العنف الثوري[٣]).

-التوسط بين الحرية المطلقة والاستبداد التام:

كان أفلاطون من الحكمة بحيث لم يذهب في مجتمعه المثالي إلى الطرف المقابل للفوضى والغوغائية الأثينية وهو التسلط والاستبداد والإسبارطي: ولذلك جاءت أفكاره حداً وسطاً بين الحرية المطلقة والاستبداد التام، وإن جاءت أقرب إلى جانب الاستبداد والتسلط فيها إلى جانب الحرية بهدف تحقيق الاتحاد التام بين سكان المدينة الواحدة حتى تصبح مصلحة المجموع ومصلحة الفرد شيئاً واحداً[٤].

وفي ظروف شبيهة لتلك الظروف التي كتب فيها أفلاطون تصوراته (للمجتمع المثالي) عادت الفكرة الاشتراكية الأفلاطونية إلى الظهور مرة ثانية في إنكلترا على يد (سيرتوماس مور) الذي كان مستشاراً لملك إنكلترا ونشر سنة١٥١٦م مؤلفاً باللغة اللاتينية عن جزيرة أثيوبيا الجديدة (أو جزيرة الخيال).

---

[١] ولد في ألمانيا عام ١٨١٨م–وقيل:١٨١٢م.ومات في إنكلترا عام١٨٨٣م.

[٢] فتحي يكن حركة ومذاهب، ١١، ١٣، ١٤.

[٣] حبنكة، الكيد الأحمر، ٦٦.

[٤] د.أحمد أحمد إبراهيم، الاقتصاد السياسي، المطبعة الأميرية ببولاق بمصر، ط٣، ١٩٣٥م، ٧٦/١.

ففي هذا الكتاب يصف المؤلف هيئة اجتماعية شيوعية. وقد كان سيرتوماس مور مؤسس علم الاجتماع الحديث متأثراً بطريقة مباشرة بأفلوطين، وقد اعترف بمصدر أفكاره بصراحة، وكان ذا تأثير كبير في الكتَّاب الاجتماعيين الذين ظهروا في فجر القرن التاسع عشر الذين عرفوا(بالمثاليين)حيث كان اتصالهم (بمور) معروفاً للجميع[1].

-غوغائية الحرية وبداية الفكرة الشيوعية:

كان المجتمع الأوروبي قد تحرر من سلطان الكنيسة وكان قد قطع في طريق الإيمان بالفرد شوطاً بعيداً، وصار المجتمع الأوروبي أقرب إلى الفوضى والغوغائية التي تمثلت في ثورات تتفجر هنا وهناك وقد بلغت هذه الثورات ذروتها في سنة ١٨٤٨م، التي كان فيها في كل بلد أوروبي ثورة. وعندما تتحول الحرية إلى غوغائية وفوضى تنتفي الحرية بمعناها الحقيقي، ويكون رد الفعل الطبيعي هو (النظام)أو(القانون).

وحول فكرة النظام أو القانون دارت أفكار الحالمين ابتداء من سيرتوماس مور في القرن السادس عشر وحتى ظهرت فكرة الدولة القومية واستقرت دعائمها قرب مطلع القرن العشرين.وتثير الغوغائية والفوضى أحلام الحالمين وتكون فرصة ذهبية للراغبين في السلطة والطامعين في الحكم.ويكون سبيل هؤلاء عندما يقفزون إلى السلطة هو التسلط والدكتاتورية ويكون نجاحهم فيما يحلمون به وأفعالهم إلى الاستزادة من هذا المنطق-منطق النظام-كرد فعلي للفوضى والغوغائية بدأت الفكرة الشيوعية على يد أفلاطون قبل الميلاد بقرون ثم عادت إلى الظهور مرة ثانية على يد سيرتوماس مور ثم تطورت على يد هوبزوهار تجتن في إنكلترا بعد حوالي عشرين قرناً من أفلاطون في ظروف شبيهة بتلك الظروف التي ولدت فيها ولادتها الأولى وفي جو التهديدات المستمرة من جانب القوى الطامعة خاصة بعد ثورة الفرنسيين.

- تبلور الفكرة ونماؤها:

نمت الفكرة وتبلورت خاصة في ألمانيا حيث ينظر المؤرخون عادة إلى المثالية ممثلة في(كانت ونيتشة وسنجل وهيجل)على أنها نظرية الثورة الفرنسية.حيث أن هؤلاء الفلاسفة رغم إشفاقهم من الإرهاب رحبوا بالثورة الفرنسية ودعوا إلى عهد جديد وتحملوا لتنظيم الدولة والمجتمع على أساس عقلي.

---

[1] المصدر نفسه.

وفي جو القلق الذي ساد أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت آخر نظرية شيوعية على يد كارل ماركس وفريدريك إنجلز(١٨٢٠-١٨٩٥م) فلقد ظل الاثنان يعملان في اتفاق تام أربعين سنة لبلورة النظرية العلمية الاشتراكية وهكذا نجد أن الشيوعية أو الاشتراكية هي أثر مباشر للنظام (الرأسمالي) الحديث[١]

ونجد أن الماركسية مدينة للغرب في أفكارها فإن ماركس لم يأت بجديد وإنما من التلفيق بينما قاله (هيجل)وما قال فيورباخ.

أقام الغرب فلسفته على أساس مادية فيورباخ وجدلية هيجل؛ غير أن الفكرة الشيوعية ظلت فكرة نظرية خيالية وحالمة كما كانت منذ نشأتها على يد أفلاطون حتى جاء لينين(١٨٧٠-١٩٢٤م)فاستطاع بلورة تعاليم ماركس وإنجلز وتطبيقها في الاتحاد السوفيتي سابقاً بعد الثورة البلشفية سنة١٩١٧م ومنذ ذلك اليوم أصبح يطلق على الشيوعية اسم(الاشتراكية الحديثة)تمييزاً لها عن الاشتراكيات السابقة. ابتداء من أفلوطين أو(الاشتراكية المتطرفة)بما تقوم عليه من تطرف في إعطاء السلطات للدولة على حساب الأفراد. أو(الاشتراكية الماركسية) نسبة إلى ماركس مصمم تعاليمها التي طبقت في الاتحاد السوفيتي سابقاً بعد ثورة البلاشفة(الماركسية اللينينية) نسبة إلى ماركس المصمم ولينين المنفذ (للشيوعية) بوصفها تضم كل الأفكار الشيوعية السابقة وتبلورها في الاشتراكية العلمية[٢].

-النظرية الشيوعية، أسسها ومبادئها:

الشيوعية النظرية تقوم على مجموعة من الأسس والمبادئ يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١. إلغاء الملكية الفردية إلغاءً باتاً وإحلال الملكية الجماعية بدلاً منها.
٢. إلغاء الطبقات بإقامة دكتاتورية البروليتاريا وإلغاء الطبقات الأخرى.
٣. كفالة الدولة لجميع (المواطنين)في مقابل تكليف القادرين منهم على العمل رجالاً ونساء.
٤. المساواة في الأجور.
٥. إلغاء الدِّين.
٦. تطبيق مبدأ "من كل بحسب طاقته، ولكل بحسب حاجته".
٧. إلغاء الصراع من المجتمع البشري بإلغاء الباعث عليه وهو الملكية الفردية.

---

[١] عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٤٦م، ١٢٥.

[٢] د.علي محمد جريشة، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، دار الاعتصام، القاهرة، ١١٣.

٨. إلغاء الحكومة في المستقبل، وإقامة مجتمع متعاون متعاطف بغير حكومة[١].

هذه هي المبادئ والأسس التي تقوم عليها النظرية الشيوعية الملحدة وتقوم بتطبيق كل الأحكام على العمال والكادحين والشعوب المسحوقة المغلوبة على أمرها، ولكن هل يطبق على أعضاء الحزب الحاكم ما يطبق على الشعب؟

لا يمكن أن يقع هذا، فالتباكي يكون على هذه الشعوب من الأحزاب الحاكمة التي تدين هذه الأفكار؛ ولكن لا تطبق الأحزاب على نفسها شيئاً من ذلك.

المطلب الثاني: العوامل التي أدت إلى الفكرة الشيوعية:

عرفنا من قبل أن هذه الفكرة-فكرة الشيوعية-فكرة يهودية الأصل، وجِدَت لتخدم اليهودية وتنشر الفساد والإلحاد في الأرض، وعرفنا أن مؤسس هذه النظرية هو: كارل ماركس اليهودي، المعقد في حياته وظهور هذه الفكرة. فالعوامل التي أدت إلى ظهور هذه الفكرة هي:

١. تسلط الكنيسة وتجبرها على الناس وجعل رجال الدين النصراني أنفسهم مشرعين للناس وبأيديهم صكوك الغفران فساموا الناس سوء العذاب، وحاربوا رجال العلم وجعلوا أوروبا في معزل عن العالم، ونكلوا بهم أشد تنكيل، وقتلوا وسفكوا دماء الأبرياء.

٢. انعدام العقائد في أوروبا، ووجود فراغ عقائدي عندهم مما جعل الساحة خالية وممهدة للقيام أو لإجابة أي داعي من أي مكان كان خاصة وأن أوروبا كما قلنا كانت ترزح تحت رحمة رجال الكنيسة.

٣. الباعث الشخصي: فيما تحويه شخصية مردخاي ماركس-منظِّر الشيوعية من حقد على المجتمع الذي عاش فيه فقيراً محروماً عالة حتى على أفراد عائلته من النساء، مما اضطره في مرحلة من مراحل حياته أن يلجأ إلى (النصب) كوسيلة للكسب..وما تحويه بعد ذلك من ميل إلى التدني والقذارة ظهرت على مظهره وملبسه، وظهرت على سلوكه الماجن وحياته البعيدة عن القيم؛ ذلك الباعث الشخصي لابد أن يكون له تأثيره على فكر ماركس، حقداً وإتلافاً وتدليلاً، فإذا أضفنا إليه أنه من سلالة يهودية انطبعت كل انحرافات اليهود في نفسه، وغذت ما فيها من حقد وإتلاف وتدل.

٤. البيئة التي شجعت على نشأة هذا الفكر وعلى انتشاره، تلك البيئة التي بلغ فيها طغيان الإقطاع الزراعي ومن بعده الإقطاع الصناعي أقصى

---

[١] محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ٤١٤.

صنوف الاستغلال.والتي بلغ طغيان الكنيسة وافتئاتها على العقول والقلوب أقصى درجات الطغيان كما بلغ تحلل أكثر رجالها أقصى درجات التحلل، واستغلالهم الدين لتحقيق الكسب المادي وفرض الإتاوات والتحالف مع الإقطاع الحاكم أقصى الدرجات كذلك. كل ذلك على حساب شعوب أكثرها فقيرة محرومة، تتطلع إلى الإنقاذ فتسمع الصيحة الخادعة "يا عمال العالم اتحدوا فأمامكم عالم تغنمونه، وليس في أيديكم ما تفقدونه سوى الأغلال".فيخدع العالم المحروم بالصيحة، ويحسبها صيحة الإنقاذ، تماماً كما قال رب العالمين: (فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها..[1]) وهكذا تبدو الشيوعية بخداعها عارضاً ممطراً..فإذا حلت كانت ريحاً فيها عذاب أليم تدمر كل شيء..وقد تكون الأفعى التي تخفي رأسها وتنفث سمومها لتحقق ما تواصت به توراتها المحرفة، أو تلمودها المحرف، أو فيما أعقب ذلك، تدميراً للأديان بل تدميراً للجنس البشري من الجوييم(غير اليهود)لتصل إلى خرافة الجنس اليهودي وامتلاكه للعالم[2].

٥. إن الشيوعية كانت ردة فعل لطغيان الإقطاع وتسلطه، وللأوضاع الشاذة التي كانت تعيشها أوروبا بشكل عام..لقد عانى الفلاحون في ذلك الجزء من العالم خلال القرون السابع والثامن والتاسع عشر من ألوان العذاب ما جعلهم يفرون إلى مجاهل أوروبا وإلى غابات سيبيريا. كذلك كانت الشيوعية ردة فعل لانحراف الكنيسة عن خطها الأصلي، ووقوفها إلى جانب الحكم (الديني).

وتدعيمها لسلطان الطغاة والحكام ودورانها في فلكهم مما حمل ماركس-برغم يهوديته-إلى الكفر بكل ما يتصل بالفكرة الدينية والأديان.وأصبحت الكنيسة-بفضل الهبات والإتاوات والعشور والهدايا والغصب والنهب والتدليس وغير ذلك من الوسائل-من ذوات الإقطاع.بل كانت أملاكها في بعض الأوقات تفوق أملاك الأباطرة وأمراء الإقطاع ومن ثم فقد تحدد موقفها من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فوقفت في صف الظلم تسانده وتذود عنه وتحارب حركات الإصلاح!. وكانت في ذلك منطقية مع وضعها باعتبارها من كبار الملاك فهل يمكن-عقلاً-أن تحارب الإقطاع وهي

---

[1] سورة الأحقاف، ٢٤-٢٥.

[2] د.علي جريشة، حاضر العالم الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٥، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ٥٠-٥١.

جزء منه، بل من أكثر ممثليه! ولقد بدأت أوروبا تتململ من رقدتها بعد احتكاكها بالعالم الإسلامي عن طريقين عظيمين وشديدي التأثير: أحدهما الاحتكاك السلمي بطلب العلم في مدارس المسلمين في الأندلس والشمال الأفريقي وصقلية وغيرها من الأماكن القريبة من أوروبا، والآخر الاحتكاك الحربي في الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي. كانت أوروبا تعيش في ظلمات الإقطاع لا قانون إلا قانونه..هو السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية كلها في آن واحد. حين يستعرض الإنسان هذا التاريخ الحافل بالمخازي والخطايا والأخطاء من طغيان روحي وفكري ومالي وسياسي وعلمي، وفساد خلقي، وانحراف فكري وسلوكي، ومساندة للظلم في جميع ألوانه، وتخذيل للمصلحين وتخدير للمظلومين، وصد عن سبيل الله وتشويه لصورة الدين..فلا نعجب للنهاية التي وصلت الأمور إليها من انسلاخ الناس في أوروبا من ذلك الدين ونفورهم منه، وثورتهم على رجاله..إن الفطرة البشرية لتثور على الظلم وتمجه ولو احتملته عدة قرون[١].

٦. ترويج اليهود للنظرية الشيوعية؛ حيث لا يستطيع باحث تقصي حقيقة الشيوعية وسائر المذاهب المفسدة للمجتمع البشري، والمقوضة لأسس أركان الحضارة الإنسانية، إلا أن يقف عند المخططات اليهودية العالمية والحركة الصهيونية الحديثة ليجد لديها الجذور الدافعة لتأسيس هذه المذاهب، وتنظيم هذه الحركات.. وتسخير الأجراء والعملاء لذلك، بالمال وبذل الشهوات المحظورة[٢]. وقد جاء في البروتوكول الثالث من برتوكولات قادة وحكماء صهيون قولهم:

"سنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المبهرجة، التي يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية، لقد نجحنا نجاحاً كاملاً بنظرياتنا التي ألبسناها ثوب التقدم في تحويل الرؤوس الفارغة من العقل نحو الاشتراكية..وحين نستحوذ على السلطة سيناقش خطباؤنا المشكلات الكبرى التي تحير الإنسانية، لكي ينطوي النوع البشري في النهاية تحت حكمنا المبارك.ومن الذي سيرتاب حينئذ في أننا نحن الذين كنا نثير هذه المشكلات وفق خطة سياسية، لم يفهمها إنسان طوال قرون كثيرة؟!"[٣].

---

[١] محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ٧٠، ٧٢، ٧٦.

[٢] حبنكة الميداني، الكيد الأحمر، ٥٩-٦١. وفتحي يكن، حركات ومذاهب، ١٢-١٣.

[٣] بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، مطبعة السنة المحمدية، ١٩٧٢م، ١٣٦-١٣٧.

"إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا محررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم حينما ننصحهم بأن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفوضويين، والشيوعيين، ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية، ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طبقاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية..وأن قوتنا تكمن في أن يبقى العامل في فقر ومرض دائمين، لأننا بذلك سنبقيه عبداً لإرادتنا، ولن يجد فيمن يحيطون به قوة ولا عزماً للوقوف ضدنا وأن الجوع سيخول رأس المال حقوقاً على العامل أكثر مما تستطيع سلطة الحاكم الشرعية أن تخول الأرستقراطية من الحقوق.

ونحن نحكم الطوائف باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤججها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هي وسائلنا التي نكتسح بها بعيداً كل من يصدوننا عن سبيلنا.وحينما يأتي أوان تتويج حاكمنا العالمي سنتمسك بهذه الوسائل نفسها، أي: نستغل الغوغاء كيما نحطم كل شيء قد يثبت أنه عقبة في طريقنا.."[1]

فهذه العوامل كلها ساعدت على قيام الفكرة الشيوعية، وتغذيتها بكل ما يملكون من قوة ونفس ومال، وذلك للخروج من هذا الطغيان والتجبر والظلم.

المطلب الثالث: مدى تدخل الدولة في النظام الشيوعي:

الدولة في النظام الشيوعي، هي المهيمنة على كل شيء، بيدها كل الأنظمة والقوانين والشرائع، فهي التي تسن القوانين، وتشرع للناس الشرائع، هي السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، وعلى هذا فالدولة في النظام الشيوعي هي المسيطرة على كل أمور البلاد حتى على مستوى الأفراد وفي أخص خصائصهم، فالشعب ملك للدولة، لا يستطيع أي فرد أن يملك شيئاً، فكل شيء ملك للدولة.

-هيكل الحكم الشيوعي وخصائصه:

الحزب الشيوعي هو الحاكم الوحيد، وهو الذي يشكل محور النشاط السياسي والاقتصادي والعقائدي. فتعطى الأهمية الكبرى في ظل الحكم الشيوعي للقواعد والقوانين والأنظمة غير المعلنة، لا للقوانين والأنظمة المعلنة، لا سيما التي تنظم العلاقة بين الحكومة والمواطنين. فالمواطنون يدركون أن الحكومة الفعلية في أيدي اللجان الحزبية، وتحت رقابة البوليس السري، وبالرغم أن دور الحزب الشيوعي في الشؤون الإدارية غير معلن فإن سلطته هي السلطة النافذة في جميع المؤسسات والمنظمات والقطاعات.مع أن القانون

---

[1] المصدر نفسه، ١٨٣-١٨٤.

لا يعطي البوليس السري الحق في رقابة المواطنين، إلا أن البوليس السري يتمتع بمطلق الصلاحيات. فاللجان الحزبية والبوليس السري يشرفان ويهيمنان بشكل فعلي على السلك القضائي، مع أنه لا توجد نصوص قانونية تخولهما هذه الصلاحية..

ومن أهم خصائصه أن السيطرة الحقيقية للشيوعية تجري من خلال طريقتين أساسيتين: الأولى: طريقة تشكيل الخلايا، وهذه هي الطريقة الرئيسية مبدئياً. الثانية: طريقة قصر المناصب الحكومية المهمة السياسية والوظيفية على أعضاء الحزب وهذه هي الطريقة الواقعية، ذات الفائدة بالنسبة إلى تمكين الحزب من وضع قبضته الشديدة على كل شيء في الدولة[١].

-طبيعة النظام الشيوعي:

إن من طبيعة النظام الشيوعي والمبادئ التي يقوم عليها هذا النظام، لابد أن تنتهي لدى وصول الشيوعيين إلى السلطة إلى ما انتهى إليه الحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، من سيطرة الحزب على الدولة والمجتمع، والوحدة الكاملة بين الحكومة والجهاز الحكومي والحزب، والقضاء على حق التعبير عن الرأي إلا ضمن الحدود المأذون بها، والتي لا تتعارض مع سياسة الحزب، وأوامر القيادة العليا. وبذلك نجد أن الصفات الأساسية والثابتة لأي بيروقراطية شيوعية تتمكن من بلوغ سدة الحكم، تركز على مجموعة من الأمور، منها:

١. سيطرة الحزب على الدولة والمجتمع.
٢. الوحدة الكاملة بين الحكومة والجهاز الحكومي والحزب.
٣. القضاء على حق التعبير.
٤. السماح بحرية الكلام بشكل يتناسب مع حجم السلطة التي يتناسب بها المرء، أو حسب المركز الحزبي الذي يحتله.."[٢]

-الحزب الشيوعي وتحكمه في أقوات الناس وأخلاقهم:

إن الحزب الشيوعي الذي يتحكم في أقوات الناس ويعلق سيفه الرهيب فوق رؤوسهم، يملك فرصة أكبر للتحكم في أخلاقهم وعاداتهم ويعتمد أن يصوغ البشر في قوالب معينة حصيلتها النهائية إفساد الإنسانية وتحطيمها، فالفرد في ظل الأنظمة الحمراء مجبر على أن يحشر هو وكامل أسرته في غرفة واحدة

---

[١] حبنكة الميداني، الكيد الأحمر، ٢٠١-٢٠٣.

[٢] المصدر نفسه، ٢٠٤.

هي غرفة جلوسهم ونومهم ومطبخهم؛ ثم هي غرفة في مجتمع إنساني ضخم غير متجانس، فالشقة التي تتكون من ست غرف يكون معدل سكانها ثلاثين نسمة ينتمون لست أسر، من البلد نفسه ومنها أسرة تعرَّض ربها للنقل التأديبي من إحدى الجمهوريات النائية، وثالثة تسكنها-مثلاً-أسرة قادمة من إحدى الدول "الديمقراطية الشعبية التابعة لموسكو"وهكذا..وهذا بالطبع غير المساكن العمالية الملحقة بالمصانع والتي حشر فيها من العمال والعاملات الذي يصلون إلى عدة آلاف في المصانع الكبرى[١].

-تحقيق الملكية الجماعية في النظام الشيوعي:

يقول الماديون: تؤلف الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج أساس علاقات الإنتاج، حيث لا يبقى طبقة استغلالية، وتوزع المنتجات حسب العمل الذي يقدمه كل إنسان تبعاً للمبدأ القائل "من لا يشتغل لا يأكل".

ويتم تحقيق الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج بواسطة الثورة الاشتراكية وقيام دكتاتورية البروليتاريا، ومهمة الطبقة العاملة بعد أن تستولي على السلطة وتقضي على الرأسمالية هي بناء اقتصاد اشتراكي جديد لأن الثورة الاشتراكية هي ثورة أغلبية السكان، وتؤدي ملكية وسائل الإنتاج الجماعية إلى القضاء على الأجور، وذلك لأن فائض القيمة أصبح يعود إلى المجتمع بكامله، ويوزع بين أعضائه حسب عمل كل عضو كما أن الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج تقضي على كل إمكانية في نشوء الأمة الاقتصادية؛ لأن المضاربة بين المنتجين تزول، ويزول معها استبداد الرأسمالية، وبالتالي يمكن القضاء على الاستعمار وأسباب الحروب[٢].

-حرية الفرد في النظام الشيوعي:

لا حرية للفرد الشيوعي مطلقاً، ولا رأي له أمام سياسية الحزب واستبداديته المطلقة، كل حرية الفرد تدور في مجال شهوته الخاصة التي لا تمس مصالح الحزب ولا مصالح الزعامة السياسية للدولة الشيوعية ولا النظام الاقتصادي المفروض فرضاً، ولا منهج العمل المحدد. فيشمل هذا الكلام الدولة الشيوعية، والمنظمات الشيوعية المنبثة في العالم، التي لم تصل بعد إلى استلام السلطة في

---

[١] سفر الحوالي، العلمانية، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١-١٩٨٢م-، ٤٤٥.

[٢] أحمد العوايشة، موقف الإسلام من نظرية ماركس، للتفسير المادي للتاريخ، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٢م، ٢٠٨.

بلدانها. وهذه المنظمات الشيوعية هي بدورها خاضعة بالانضباطية نفسها لزعامة الدولة الشيوعية التي ترتبط بها[١].

إن النظام الاقتصادي الشيوعي قائم على الدكتاتورية الكاملة، فالدولة هي التي تعين الأعمال، وتوزع عليها العمال حسب ما ترى هي بصرف النظر عن رغبة العامل في نوع العمل أو المكان الذي يشتغل فيه، وهي التي ترسم السياسة العامة وتجبر الناس على تنفيذها، ولا يتم هذا إلا بأن تصبح الدولة هي المشرف الوحيد على جميع الأعمال والأفكار والأقوال والاجتماعات والتوجيهات، لأن الحرية لو تركت في جانب، فستصل حتماً إلى نقد حرية النظام أو نقد الحاكم وهو ما لا تسمح به الدولة بحال[٢].

المطلب الرابع: ويلات الشيوعية:

لقد قامت الشيوعية منذ اليوم الأول على سفك الدماء وسحق الشعوب سحقاً لا رحمة فيها، وتعتبر هذه الإبادة والسحق جزء من هذا النظام الدموي الذي لا يمكن له البقاء إلا على أشلاء البشر وتشريدهم ومطاردتهم، والتنكيل بمن يحاول أن يفكر فقط مجرد تفكير ضد هذا النظام.

شهدت بهذه الوقائع التي لا تحصى، ودلت عليه طبيعة الشيوعية القائمة على الحقد الطبقي، والأنانية المفرطة المقيتة بإنكار وجود الخالق جلّ وعلا، وإنكار العدل الرباني الذي هو مظهر من مظاهر حكمة الله العليم الحكيم القدير، وإنكار يوم الدين وما أعد الله فيه من جزاء للمحسنين والمسيئين، والمقترنة أيضاً بعدم اعتراف الشيوعيون بأية مبادئ أخلاقية إنسانية، لأن العقيدة الشيوعية قائمة على المادية فقط، الخالية من أية أهداف غائية للوجود.

إن مثل هذه العقيدة المادية الملحدة، لابد أن تطلق الوحش البشري الشرس المدمر الذي لا تقنعه فريسة تشبع بطنه، ولا ممارسة تطفئ نار شهوته، لأن طمع الإنسان وجشعه لا حدود لهما، ولا يشد لجامها إلى الإيمان بالله والخوف من عقابه وانتقامه، ومن جزائه يوم الدين[٣]".

إن روسيا السوفيتية وكتلتها الشيوعية، سارقة للوطن الإسلامي في التركستان، والقرم، ويوغسلافيا وما إليها. شأنها شأن الكتلة الغربية في الشمال الأفريقي ووادي النيل، ومن ثم فإن مصلحة اللصوص تلتقي كلما كانت القضية

---

[١] حبنكة الميداني، الكيد الأحمر، ٢٨-٢٩.

[٢] محمد قطب، شبهات حول الإسلام، ٢١٧-٢١٨.

[٣] حبنكة، الكيد الأحمر، ٢٤٣.

قضية قطر الإسلام، ثم تفترق بعد ذلك، فتبلغ حد الحرب الباردة أو الحارة عند الاقتضاء[١].

-رد الفعل:

لقد رأى العالم كله ما أنزلت الشيوعية في روسيا من المظالم الشنيعة، على نطاق واسع جداً، لتحقيق نظريتها وإقامة نظامها. وكذلك نفخ نجاحها في ثورتها نفخة هائلة في نار الحرب الطبقية المتأججة في مختلف أقطار الأرض. فكان من النتائج اللازمة لكل ذلك أن اضطر المفكرون في الأقطار غير الشيوعية إلى أن يأتوا في مبادئ اقتصادهم؛ وقواعده ومناهجه، بتعديلات يترضون بها العمال الكادحين ويزيلون شكاواهم، ليتمكنوا من إنقاذ بلادهم من الوقوع في خطر الثورة الشيوعية[٢].

-الإرهاب الكبير المرعب:

التطهير الكبير المرعب الذي قام به (ستالين) نفسه، الطاغية المستبد الذي لا يسمح لأحد داخل الاتحاد السوفيتي مهما كان شأنه أن يرى رأياً غير رأيه هو، ولا أن يعمل عملاً ما خلاف أوامره ونواهيه، وإلاّ حلّ به الانتقام الأليم حتى الموت.وهذا التطهير الكبير العجيب في تاريخ البشرية يتميز بثلاثة أمور:

١. سعة نطاقه، إذ أبيدت به الملايين، وعاش به كل مواطن تحت وطأة الوعيد المباشر.
٢. وسائله التي منها محاكمات الاعتراف الناشئ عن عملية التعذيب.
٣. سرية التطهير، إذ لم يكن يصدر شيئاً عن الدولة يكشف عمليات التطهير الواسعة..وقد استمر الروس طوال عشرين سنة لا يعرفون عن التصفيات في عهد ستالين إلاّ على أنها مؤامرة واسعة قادها أعضاء خائنون من قيادة الحزب، دبرت بالتعاون مع الدول الرأسمالية، لاغتيال القيادة السوفيتية[٣]...

-سحق الفرد:

في عام ١٩٣٥م، بدأت عملية هادئة للتنظيم السياسي تطوّرت إلى تصفية المعارضة الداخلية، وانتهت بحركة تطهير واسعة النطاق استمرت حتى عام١٩٣٩م.وفي خلال فترة الإرهاب هذه استمرت أربع سنوات اعتقل ملايين الأفراد أعدم منهم آلاف.

---

[١] سيد قطب، دراسات إسلامية، دار الشروق، بيروت القاهرة، ط٦- ١٩٨٣م، ١٧١-١٧٢.

[٢] المودودي، أسس الاقتصاد، ٨٧.

[٣] حبنكة، الكيد الأحمر، ٢٦٣-٢٦٤.

ولقد هرب إلى أوربا وأمريكا لاجئون من كل الدول الشيوعية رجالاً ونساء، شيوخاً وأطفالاً. وكان منهم المزارع، وأستاذ الجامعة. والبناء وحمال الجمرك، والعالم والجندي، والفنان، والسياسي ومن كل فئات الشعب للنجاة من هذا الخوف والجحيم الذي كان يصب عليهم.ولا يهمنا أن نعرف أن آلافاً كثيرين من الناس يفرون من الشيوعية بقدر ما يهمنا أن نعرف: لماذا يهربون؟ فلنزن الأمور بميزان فرد يعيش في دولة تسيطر عليها الشيوعية أن يختار الشقة التي يسكن فيها، والمدينة التي يقيم فيها، والعمل الذي يشغله، والمكان الذي يعمل به كل هذه أمور يقررها غيره وليس لرأيه فيها اعتبار، والطعام الذي يشتريه، والسعر الذي يدفعه فيه_أمران مفروضان عليه-والملابس التي يرتديها هي التي قيل له: إن بإمكانه الحصول عليها، وكل الوسائل التي يتمتع بها-والكتب التي يقرؤها، واللوحات الفنية التي يراها، والأفلام التي يشاهدها، والموسيقى التي ينصت إليها-كلها يختارها له شخص آخر[1].

وهكذا يصبح الفرد لا قيمة له؛ بينما الذي يحكم هو الفرد المطلق سواء كان متمثلاً بفرد واحد، أو بحزب مسيطر عليه فرد واحد.

-وسائل السيطرة:

إن أي عمل يقوم به أي واحد من المواطنين السوفيت..يحدث في نطاق القرارات التي يتخذها "البريزيديوم" أي مجلس السوفيت الأعلى..ويتولى الحزب، والجيش الأحمر، والبوليس السري، والجهاز الحكومي-تحت إشراف البريزيديوم-بسط شبكة من السيطرة على ركن من أركان الدولة.فيقوم الحزب عن طريق التعليم والدعاية، بوضع الخطوط العريضة للسلوك الذي يتطلبه الحزب في حين يقف البوليس السري بنظمه المعقدة ومخبريه وعملائه؛ رادعاً ضد كل من تسول له نفسه أن يخرج على قواعد السلوك الموضوعة. أما الجيش الأحمر الذي يسيطر على وسائل التدمير؛ فهو خطر ضخم يتهدد أي معارضة قد لا يستطيع البوليس السري معالجتها، كما أن بيروقراطية الشيوعية الضخمة تسيطر على كافة النشاط الاقتصادي في الأمة..وكل موظف شيوعي؛ مهما كان مركزه، يخضع لقيود تسيطر على عمله..والواقع أن سلامة الدكتاتور تتوقف على تهديد أمن مرؤوسيه.

---

[1] رتشارد كتشام، هذه هي الشيوعية، ترجمة: عزت فهيم، دار الكتب المصرية شارع القصر العيني، ط٣، ٧٠، ١١٥، ١١٨-١٢١.

وهذه السلسلة من الخوف وعدم الأمن هي التي تربط بين مختلف طبقات المجتمع في الدولة الشيوعية سواء في الاتحاد السوفيتي أو غيره من الدول التابعة لها[١].

-طغيان الدولة:

"إن الطغيان الشيوعي والإرهاب في أساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسي".

"في عام ١٩٢٨م كان في روسيا ثلاثون ألف عامل سخره، وعندما قرر ستالين في مشروع الخمس سنوات أنه سينشئ صناعات جديدة في روسيا بدأت معسكرات السخرة تمتلئ بسرعة، وما أن حل عام١٩٣٣م حتى كان فيها خمسة ملايين من عمال السخرة، وبمرور الزمن ارتفع هذا الرقم إلى ما يتراوح بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليوناً..ولم يكن يرسل إلى معسكرات السخرة في بداية الأمر غير الأعداء الحقيقيين للحكومة السوفيتية، ولكن لم تكد تمضي فترة طويلة حتى تم تحويل عدد كبير من الناس إلى عمال سخرة لمجرد الشعور بأنهم قد يصبحون في يوم من الأيام خطراً على الحكومة، وهذا فضلاً عن أن الحكومة احتاجت إلى عمال لتنفيذ مشروعات في مناطق نائية لا يمكن أن تجتذب عمالاً يذهبون باختيارهم[٢].

-دموية الشيوعية:

من الأسس والمبادئ التي أخذتها الشيوعية من أمها الرءوم الصهيونية مبدأ العنف الدموي الذي لا يعرف في مسلكه أي خلق أو عرف إلا مصلحة فاعلة، فقد جاء في البروتوكول الصهيوني الأول: (يجب أن يكون شعارنا "كل وسائل العنف والخديعة" إن القوة المحضة هي المنتصرة في السياسة، وبخاصة إذا كانت بالألمعية اللازمة لرجال الدولة يجب أن يكون العنف هو الأساس). هذا هو الموقف الصهيوني من مبدأ العنف بل هو المبدأ الصهيوني ضد خصوم الصهيونية وهذا هو أيضاً المبدأ الشيوعي ضد خصوم الشيوعية في العالم[٣].

-نكبات المسلمين على أيدى الشيوعيين:

بعد نجاح الثورة الماركسية البلشفية في روسيا، وقبل أن يستتب الأمر تماماً للشيوعيين أرادوا استمالة المسلمين في البلاد، واستثارتهم ضد الحكم القيصري الذي كان يضطهدهم ويعتدي على حرماتهم، ليكونوا قوة مساندة للشيوعيين

---

[١] المصدر نفسه.

[٢] الحوالي، العلمانية، ٣١٨-٣٢٣.

[٣] دندل جبر، الشيوعية منشأً ومسلكاً، مكتبة المنار، الأردن، ط٣، ٢٢٢-٢٢٣.

الثائرين ضد قوة المعارضة النصرانية الموالية للحكم السابق.وأسرع المسلمون حين سمعوا هذا النداء..فأعلنت دول استقلالها واستعادة سيادتها..ولم تمض فترة وجيزة حتى ثبت الشيوعيون أقدامهم..عندئذ توجهوا بجيشهم المعروف بالجيش الأحمر، يحصدون الجمهوريات الإسلامية..وفي مدى ثلاث سنين استولى الشيوعيون على هذه الجمهوريات الإسلامية، بعد أن قدم المسلمون في حرب المعتدين تضحيات جسيمة[١]..

"وفي أبريل سنة١٩٢٨م أصدر لينين أمراً بالزحف على البلاد الإسلامية دون إنذار سابق، فأخذت الدبابات تحصد المدن حصداً وتدك الحصون والقلاع، والطائرات تمطر البلاد سيلاً من قنابلها دون تمييز بين عسكريين ومدنيين..هذا هو الوصف السريع للقتال الذي نشب بين المسلمين والجيش الشيوعي المكلف بإخضاعهم والسيطرة على بلادهم[٢].

المبحث الثالث: النظام الاقتصادي الإسلامي:

لقد جربت البشرية الحديثة كل نظام يمكن أن يخطر في بال الإنسان..الفردية والجماعية..الرأسمالية والشيوعية.. الملكية واللاملكية..وجربت المتاع الحسي المنطلق بلا غاية..في المأكل والمشرب والمسكن والملبس..والجنس.. وجربت الإيمان بكل (إله) من صنع الإنسان..والإنسان المتأله..والإلحاد بكل إله..فما ازدادت إلا حيرة وتخبطاً وضياعاً وبعداً عن الصراط السوي، كل ذلك لأنها لم تجرب ولم تتبع طريق الهدى والفوز والفلاح في الدارين، فكان ذلك الضياع والشقاء والحرمان من المتعة الحسنة، والحياة الحقيقية..[٣].

-النظام الاقتصادي الإسلامي ووسطيته:

وهو النظام الاقتصادي الرباني الذي هو صراط سوي على قمة النظم الوضعية ولهذا الصراط وسط مرتفع فيه مرتبة الإحسان وهي مرتبة ذات درجات ودون مرتبة الإحسان مستوى تقع فيه مرتبة البر.

وهي مرتبة ذات درجات أيضاً ودون مرتبة البر مستوى تقع فيه مرتبة التقوى وهي مرتبة ذات درجة واحدة والإخلال بواجباتها وبشروطها أو النزول عن مستواها إخلال بنظام الإسلام الاقتصادي أو انحدار عنه أو بعصمته فيه.

ونظام الإسلام الاقتصادي أساسه الحق والعدل والتكافل والتضامن والبر والإحسان وابتغاء مرضاة الله عز وجل-وليس فيه ظلم ولا عدوان ولا انحياز

---

[١] حبنكة، الكيد الأحمر، ٢٤٥-٢٤٧.

[٢] محمد الغزالي، الإسلام في وجه الزحف الأحمر، منشورات المكتبة العصرية بيروت، ١٣١.

[٣] محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ٢٠٠-٢٠١.

للفرد ضد الجماعة، ولا الجماعة وحقوقها، ولا انحياز للجماعة ضد مصالح الأفراد وحقوقهم.

فهو نظام رباني ليس فيه أي قصور أو خلل كما هو الحال في الأنظمة البشرية الأرضية التي يعروها دائماً العجز والقصور والنقص، لأنها أنظمة بشرية.

ولهذا فإن هذا النظام الرباني يعلى ولا يعلى عليه، ويسمو على جميع الأنظمة القاصرة التي عرفناها من قبل، أنها إما أن ترفع شأن الفرد وتهمل الجماعة؛ وتسحقها، وإما أن ترفع شأن الجماعة وتهمل الفرد وتسحقه بدون أدنى اعتبار أو مراعاة، وهذا دليل على قصور هذه الأنظمة البشرية وظلمها إما للفرد أو للجماعة. وأما النظام الرباني كما عرفنا ليس فيه شيء من ذلك."ولذلك يحرم الإسلام الاحتكار واغتصاب حقوق الآخرين وأكل أموالهم بالباطل.وهو بالتالي يعطي الإنسان من الحرية ما يحفظ به التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة"[1].

المطلب الأول: نظرة الإسلام إلى الفرد والجماعة

بادئ ذي بدء لابد من توضيح محترزاً مهماً وهو أننا حينما نقارن بين النظم المختلفة والإسلام فهي مجرد مقارنة لضرورة فهم الموضوع؛ لأنه لا مقارنة حقيقة بين منهج أتى من عند رب الناس الذي يعرف خلقه وما يصلح لهم. وبين مناهج من عند أناس أبرز ما يميزهم هو القصور البشري، بالإضافة إلى عدوانهم الصارخ على ربهم وخالقهم، فالمقارنة بعيدة جداً كمثل من يقارن بين نور الشمعة ونور الشمس، ولكن ضرورة الدراسة جعلتنا نقول عنها بأنها مقارنة بين هذه النظم.

ومن هنا فإذا استعرضنا هذه النظم الثلاثة التي يدعو لها أصحابها اليوم، وهي: (الرأسمالية والشيوعية والإسلام)، فإننا سنجد نظمها الاقتصادية وفكرة الملكية فيها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفكرتها الاجتماعية.

فالرأسمالية تقوم على أساس أن الفرد كائن مقدس لا يجوز للمجتمع أن يحجر على حريته، ومن ثم تباح هناك الملكية الفردية بلا حدود.

والشيوعية تقوم على أساس أن المجتمع هو الأصل، والفرد لا كيان له بمفرده، فهي تضع الملكية في يد الدولة ممثلة المجتمع، وتحرم فيه الأفراد.

أما الإسلام فله فكرة أخرى، ومن ثم له اقتصاد آخر. فأما فكرته عن الفرد والجماعة فهي ترى أن الفرد كائن ذو صفتين في وقت واحد: صفة كفرد

---

[1] فتحي يكن، حركات ومذاهب، ٤٧.

مستقل، وصفة كعضو في جماعة. وأنه يستحب أحياناً لهذه الصفة أو تلك بصورة بارزة، ولكنه في النهاية مشتمل عليهما معاً ومستجيب لهما معاً[١].

وأما فكرته الاجتماعية المستمدة من تلك الفكرة، فهي لا تفصل بين الفرد والجماعة، ولا تضعها في موضع التقابل كمعسكرين متصارعين يحاول كل واحد منهما أن يغتال الآخر.

وما دام كل فرد في ذات الوقت فرداً مستقلاً وعضواً في جماعة، فإن التشريع الذي يتمشى مع الفطرة يوازن بين مصالح كل فرد وغيره من الأفراد الذين يتكوَّن منهم المجتمع، دون أن يفني إحدى النزعتين لحساب الأخرى، ودون أن يسحق الفرد لحساب المجتمع أو يفكك المجتمع لحساب فرد أو أفراد..

ومن ثم فاقتصادياته تمثل هذه النظرة المتوازنة، التي تقع بين الرأسمالية والشيوعية، وتحقق أفضل ما في النظامين دون أن تقع في انحرافهما، فهي تتيح الملكية الفردية من حيث المبدأ، ولكنها تضع لها الحدود التي تمنع بها الضرر.وتتيح للمجتمع-أو ولي الأمر ممثل المجتمع-أن ينظم هذه الملكية أو يعدلها كلما ظهر له أن ذلك يحقق مصلحة للمجموع[٢].

لذلك لا يضيق الإسلام بالملكية الفردية ما دام يملك أن يزيل بشتى الوسائل ما قد ينتج عنها من أضرار.وإن بقاء الملكية من حيث المبدأ مع تقرير حق الجماعة في تنظيمها وتقييدها، خير في معاملة النفوس من إلغائها بتاتاً، على أساس غير صحيح: وهو أن الملكية ليست نزعة فطرية ولا ضرورة بشرية.

وإن اضطرار روسيا أخيراً إلى إباحة ألوان من الملكية في حدود معينة لبرهان قوي على أن من الخير الاستجابة إلى الفطرة البشرية: خير للفرد وللمجموع على السواء[٣].

-حقيقة الملكية الفردية وخصائصها:

تكون الملكية فردية: إذا كان الانتفاع بآثارها لشخص معين على وجه الاختصاص والتعيين، سواء أكان هذا الملك متميزاً باسم فرد معين، أو شائعاً مختلطاً مع ملك غيره ضمن دائرة محددة.والملكية الفردية هي أسبق النوعين وجوداً لأنها أثر من آثار الغريزة الإنسانية، والغريزة بطبيعتها موجودة في الإنسان قبل انتظامه في جماعة. والملكية الفردية ظلت على مر العصور موضع اعتراف أرباب المذاهب والآراء على اختلاف نحلهم واتجاهاتهم، إلا من شذ عن ذلك..

---

[١] المصدر نفسه.

[٢] محمد قطب، شبهات حول الإسلام،٩١-٩٢.

[٣] المصدر نفسه، ٩٢.

والشريعة الإسلامية قد أقرت الملكية الفردية..فهي مما يصح أن يقال فيها أنها مما يعلم من الدين بالضرورة، فالإسلام قد فرض على المسلم فرائض مالية معينة، كالزكاة وغيرها، كما ندب المسلم إلى التصدق وبذل المال في سبيل الله، وذلك كله يستلزم أن يكون لدى المسلم ما يتصدق به[١].

-الملكية الجماعية وحقيقتها:

الملكية الجماعية هي التي يتعين الانتفاع بآثارها لجماعة من الناس، ولا يكون انتفاع الفرد بها إلا لكونه فرداً من الجماعة، دون أن يكون له اختصاص معين بجزء منها، وبذلك تكون الملكية: ملكية جماعية، تخص الأفراد بمجموعهم، دون اعتبار لاختصاص فرد بعينه فيها[٢].

-طبيعة الملكية الفردية:

الإسلام لا يدع حق الملكية الفردية مطلقاً بلا قيود ولا حدود- كالنظام الرأسمالي-فهو يقرره، ويقرر بجواره مبادئ أخرى، تجعله أداة لتحقيق مصلحة الجماعة بنفس الدرجة التي تتحقق بها مصلحة الفرد المالك سواء! وهو يشرعه ويشرع له الحدود والقيود التي ترسم لصاحبه طرقاً معينة في تنميته وإنفاقهوتداوله..ومصلحة الجماعة كامنة من وراء هذا كله، ومصلحة الفرد وذاته لذلك في حدود الأهداف الخلقية التي يقيم الإسلام عليها الحياة.

وأول مبدأ يقرره الإسلام-بجوار حق الملكية الفردية-أن الفرد أشبه شيء بالوكيل في هذا المال عن الجماعة، وأن حيازته له إنما هي وظيفة أكثر منها امتلاكاً؛ وأن المال في عمومه إنما هو أصلاً حق للجماعة، والجماعة مستخلفة فيه عن الله، الذي لا مالك لشيء سواه.

والملكية الفردية تنشأ من بذل الفرد جهداً خاصاً لحيازة شيء معين من هذه الملكية العامة التي استخلص الله فيها جنس الإنسان[٣].

-وسائل التملك الفردى:

ويرتب الإسلام على نظريته هذه بطبيعته الملكية نتائجها المنطقية فيضع الشروط للتملك، بحيث لا يخرج عن مصلحة الجماعة، ومصلحة الفرد الداخلة في مصلحة الجماعة لا تنفصل عنها أبداً.

---

[١] سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، ط٩-١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ٨٩-٩٠.

[٢] د.عبد الوهاب عبد العزيز الشيشاني، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة، مطابع الجمعية العلمية الملكية، ط١، ١٩٨٠م، ٤١٣-٤١٤.

[٣] سيد قطب، العدالة الاجتماعية، ٩٠-٩١.

فهو يقر أولاً أن الملكية لا تكون إلا بسلطان من الشارع الحكيم. فالشارع في الحقيقة هو الذي أعطى الإنسان الملك بترتيبه على السبب الشرعي، ولذا جاء في بعض التعريفات:

"إن الملك حكم شرعي مقدر في العين أو المنفعة، يقتضي تمكين من يضاف إليه من انتفاعه بشيء وأخذ العوض عنه"..ولهذا الحكم قيمته في توضيح نظرية الإسلام في حق الملكية، فهي تمليك من الشارع، لفرد في الجماعة، شيئاً خاصاً، لم يكن ليحق له ملكه لولا هذا التمليك، لأن الأصل أن المال مال الله مستخلف فيه بنو الإنسان، وكل إذن بتخصيصه لابد أن يصدر من الشارع حقيقة أو حكماً.والعمل هو الوسيلة الوحيدة لنيل حق التملك في الإسلام.العمل بكل أنواعه وألوانه المشروعة-ويخل في حق التملك أيضاً الإرث والوصية-.وفي هذا من العدالة بين الجهد والجزاء ما فيه[1].

-الملكية الفردية والملكية الجماعية:

الملكية الفردية: هي ما يكون المالك لها شخصاً معيناً بذاته أو أشخاصاً معينين يملكونها ملكاً مشاعاً بينهم في حدود معينة.والدافع لها حاجة الفرد الجدية لمالا غنى له عنه، ثم ما فطر عليه من حب التملك لما زاد عن حاجته.أما الملكية الجماعية: فهي التي لا يكون المالك لها فرداً بذاته ولا أفراداً معينين بذواتهم كما في الملك المشاع بين أشخاص معينين، وإنما يكون المالك شخصاً اعتبارياً كالأسرة والقبيلة والنقابة والجمعية والحكومة والدولة والأمة..ونحو ذلك[2].وعلى الرغم من كون الفرد المشترك ضمن مفهوم الشخص الاعتباري مالكاً، إلا أنه لا يملك حق التصرف الشخصي في هذه الملكية، لاشتراك الجمعية معه في كل ذرة حق في الملكية الجماعية، ولعل هذا هو أبرز ما يميزها عن الملكية الفردية..إن الملكية الجماعية قد عرفت عند هؤلاء بشكل أو بآخر، وأقرت في جميع النظم والشرائع في صورة من الصور. وليست ثمة أمة إلا ويقوم فيها مظهر من مظاهر الملكية الجماعية. أما الملكية الفردية: فقد بقيت أبداً موضع خلاف، ومكمن اضطراب وتضارب في الآراء والأفكار بين إباحة ومنع، وتحديد وتنظيم[3].

---

[1] المصدر نفسه، ٩٤-٩٥.

[2] الشيشاني، حقوق الإنسان وحرياته، ٤٥.

[3] المصدر نفسه.

-الاعتدال والتوسط في النظام الإسلامي:

أما الإسلام فيقيم بين هذين النظامين الاقتصاديين المتطرفين نظاماً معتدلاً، أجل ما فيه من الأصول والمبادئ أن يعطي الشخص حقوقه الفطرية والشخصية-كلها-بطريق لا يختل به التوازن في توزيع الثروة. فهو، في جانب يمنح الفرد حقه في الملكية الشخصية وحقه في التصرف في ماله، وفي الجانب الآخر يقيد كل حق من هذه الحقوق وكل تصرف من هذه التصرفات بقيود خلقية من داخله وقيود قانونية من خارجه، يقصد من ورائها.ألا تجتمع موارد الثروة في موضع بصورة هائلة، بل تبقى تتبادل وتتداول بين مختلف الأفراد والآحاد، حتى ينال كل واحد منهم نصيبه المشروع المتناسب، فلهذا الغرض قد نظم الإسلام اقتصاده على أسلوب مبتكر يختلف عن أسلوب النظامين الرأسمالي والشيوعي من حيث الروح والمبدأ ومناهج العمل[1].

-نظرية الإسلام الاقتصادية:

نظرية الإسلام الاقتصادية هي: أن الرابطة بين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية وثيقة من حيث فطرتهما؛ فمن الواجب أن تكون بينهما الموافقة والمعاونة لا المزاحمة والمصارعة.

فإن كان الفرد يجلب إلى نفسه ثروة الجماعة، غير آبه لما يخالف المصلحة العامة، ولا مراع عند ادخارها وإنفاقها إلا لمصلحته الذاتية، فإن ضرره لا يقع على الجماعة فحسب، بل لابد أن تعود مضاره ومغباته، في آخر الأمر، على نفسه أيضاً.

وكذلك إن كان نظام الجماعة مضيعاً لمصلحة الأفراد في سبيل المصلحة العامة، فإن مضاره لا تقتصر على الأفراد وحدهم بل تعود على الجماعة أيضاً في آخر الأمر.ففي رفاهة الأفراد رفاهة الجماعة، وفي رفاهة الجماعة رفاهة الأفراد؛ ورفاهة الأفراد والجماعة-معاً-هي أن يكون بين "إثرة"الأفراد و"إيثارهم" تناسب متزن سليم: يجتهد الفرد لمصلحته الذاتية من غير أن يضار غيره من جراء اجتهاده هذا، ويكسب كل ما يقدر على كسبه بشرط أن يكون فيما يكسب حق لغيره، وهو ينفع الآخرين وينفع بهم، ولا يكفي للمحافظة على توزيع المنافع وتداول الثروة أن ينشأ في طباع الأفراد طائفة من الأوصاف الخلقة فقط، بل لابد لذلك في الوقت نفسه أن يكون نظام الجماعة منظماً طرق اكتساب المال واستهلاكه تنظيماً صحيحاً، لا يحل فيه أن يكسب الفرد ثروته

---

[1] المودودي، أسس الاقتصاد، ١٧-١٨.

بطريق تلحق الضرر بغيره، أو تبقي الثروة المكتسبة بالطرق المشروعة متجمعة في موضع من المواضع، بل لابد من تداولها بين مختلف الأفراد.

-غاية النظام الاقتصادي الإسلامي:

إن النظام الاقتصادي الذي يقيم بناؤه على هذه النظرية ليس من غايته أن يتمول بعض أفراد المجتمع تمولاً فاحشاً وبقاء أكثرهم مفتقرين، ولا ألاّ يتمول منهم أحد ويستوي الجميع منهم قسراً وقهراً على رغم ما فطروا عليه من التفاوت، بل غايته، بين هذا الإفراط وذاك التفريط، أن يستوفي الحاجات الاقتصادية لأفراد الجماعة أجمعين دون أن يطغى فريق على آخر، أو جانب على جانب، فيستوفي كل فريق حقه، ويستكمل حاجاته بنفس راضية، وعين قريرة هادئة، وهذا الاستيفاء بهذه الصورة المتكاملة المتوازنة -بطبيعة الحال- لا نظير له ولا مثيل ولا وجود في كل المذاهب الاقتصادية البشرية إلاّ في هذا النظام الاقتصادي الإسلامي، لأنه يستند على الحكم الشرعي الرباني[1].

المطلب الثاني: أثر تلك النظرية على الناس والحياة:

إن الإسلام جعل لكل من الفرد والجماعة حقوقاً وأوجب عليه واجبات فنظرة الإسلام شاملة متوازنة عادلة ليس فيها هضم لفئة على أخرى حيث قد رأينا كيف أن الرأسمالية قد طغت وأسرفت في التمكين للأفراد وهضمت وضيعت الجماعة لصالح الفرد، وجعلت منه إله يعبد. وكذلك رأينا الشيوعية كيف سلبت حق الفرد وضيعته لصالح الجماعة وجعلت الجماعة هي الإله الذي يجب أن يكون كل شيء في يد هذه الجماعة. أما الإسلام فقد جعل: هناك تكاملاً بين الفرد والجماعة، وبين الجماعة والفرد، يوجب على كل منهما تبعات؛ ويترتب لكل منهما حقوقً، والإسلام يبلغ في هذا التكافل حد التوحيد بين المصلحتين، وحد الجزاء والعقاب على تقصير أيهما في النهوض بتبعاته في شتى مناحي الحياة المعنوية والمادية على السواء.فكل فرد مكلف أولاً أن يحسن عمله الخاص.

وإحسان العمل عبادة لله، لأن ثمرة العمل الخاص ملك للجماعة وعائدة عليها في النهاية: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون..[2]). وكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها، موكل بها.

---

[1] المصدر نفسه، ١٨-١٩.

[2] سورة التوبة، ١٠٥.

والحياة سفينة في خضم، والراكبون فيها جميعاً مسئولون عن سلامتها وليس لأحد منهم أن يخرق موضعه منها باسم الحرية الفردية..وليس هناك فرد معفي من رعاية المصالح العامة. فكل فرد راع ورعيته في المجتمع..والتعاون بين جميع الأفراد واجب لمصلحة الجماعة في حدود البر والمعروف: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان..)[١]. والأمة مسئولة عن فقرائها ومعوزيها أن ترزقهم بما فيه الكفاية؛ فتتقاضى أموال الزكاة وتنفقها في مصارفها؛ فإذا لم تكف فرضت على القادرين بقدر ما يسد عوز المحتاجين، بلا قيد ولا شرط إلا هذه الكفاية فإذا بات فرد واحد جائعاً فالأمة كلها تبيت آثمة ما لم تتحاض على إطعامه..والأمة المسلمة كلها جسد واحد يحس إحساساً واحداً، وما يصيب عضواً منه يشتكي له سائر الأعضاء[٢].

-نظرة في صورة الإسلام الاقتصادية:

إن الناظر في صورة الإسلام الاقتصادية، مهما أمعن النظر والتدقيق، بل وأعاد النظر مرة بعد مرة، فلن يجد فيه مجالاً للمفاسد الرأسمالية. وكذا الناظر إلى روح هذا النظام وإلى وضعه وهيئته؛ ولونه ونوعه وإلى أجزائه وما فيها من الارتباط والتوافق؛ وإلى ما يضمر فيه من المعنى والغاية: فهل سيجد بعده حاجة إلى التأميم الشيوعي أو السيطرة الفاشية أو النازية أو مجالاً للطرق الرأسمالية؟ فإن كان الجواب على ذلك بالنفي-ولابد أن يكون كذلك. فإذا أمعن النظر وسرحه بكل دقة مرة أخرى في ضرورة هذا النظام، وقل أين تجد فيه نقصاً أو فطوراً من الوجهة الخلقية والمدنية والاقتصادية؟ فالواقع أن الإسلام ليس يملك أفضل النظم الاقتصادية فحسب بل يمتلك تجارب لا تحد في أسلوب تطبيق هذه النظم وفي مدى إيجابيتها[٣].

-نظام الإسلام من الوجهة الاقتصادية البحتة:

ثم إذا كنت لا تقيم الوزن للمصالح الخلقية والمدنية العليا وترى أن الاقتصاد له الأهمية الحقيقية في الحياة الإنسانية، فانظر إلى نظام الإسلام من الوجهة الاقتصادية البحتة، تجده يتحدى كل مدَّع بالنظر الدقيق والكعب البالغ واليد الطولى في علم الاقتصاد، فليأت وليشر إلى فساد أو خلل أو ضعف في مبادئ هذا النظام الاقتصادي وأصوله، أو يعرض فيه، بقوة دلائله وشواهده، إصلاحاً أو تغييراً يكون هذا النظام ناقصاً بدونه في حد ذاته، أو يقترح للإنسانية نظاماً

---

[١] سورة المائدة، ٢.

[٢] سيد قطب، العدالة الاجتماعية، ٥٧،٦٠.

[٣] صادق العُبَادي، الاقتصاد الإسلامي، ٦.

للاقتصاد آخر يكون قد أقيم فيه التوازن بين الجماعة والفرد في حقوقها ومصالحها على وجه أصح وأشمل من هذا النظام بالسعادة والطمأنينة الفردية والجماعية على حد سواء[١].

فإن لم يمكن حتى هذا-ولن يمكن أبداً-فهل يقتضي العقل أن تتولى بضعفك عن هذا النظام الاقتصادي الوسط العادل، وتتبع خبائث النظم الاقتصادية التي ظهرت مفاسدها في هذه الدنيا، ثم لا تندم على ذلك، وتفرح به، وتحاول إدماج أركان النظام الرأسمالي أو النظام الشيوعي الفاسدة كلها في نظام الإسلام الاقتصادي المهر، بدون أن تجهد نفسك في التفكير إلى أي حد لا تلتئم هذه الأركان والأسس الفاسدة مع مبادئ الإسلام وروحه وطبيعته. إنك تطرح وصفة الطبيب أولاً وتأبى أن تعمل حسب تعليماته لحفظ الصحة ولا تمنع نفسك عن الأشياء التي أمرك باجتنابها والابتعاد عنها، ولكن عندما يشتد بك المرض وتحس بدنو الأجل، تقول لهذا الطبيب نفسه أن اكتب لي بيدك وصفة الطبيب الذي أمرضتني وصفته واسمح لي بتناول نفس الأشياء التي قد أشرفت بي على الموت، وقل عن الذي قلت عنه أنه السم في أمس، هو الترياق اليوم. فيا للعجب والسفاهة[٢].

ومن هنا فإن الإسلام وحده هو المخول بوضع هذا النظام وتنميته، وجعله في خدمة الأهداف الكبيرة التي من أجلها خلق الإنسان، وهذا يفرق بين أسلوب التنمية في الإسلام؛ وبين المناهج الوضعية بعدة فروق أساسية منها:

١. إن الإسلام يرفض بشدة إكراه الناس على التقدم تحت ستار التحضر بالعنف.
٢. إن الإسلام يمنع الدكتاتورية من أجل التنمية التي تحت شعارها تقوم الأنظمة الاشتراكية بمصادرة الحريات وكبت التطلعات، وتحطيم القيم والأخلاق.
٣. إن الإسلام يقف ضد الإثراء على حساب الآخرين، لأنه تضحية غير مشرفة بالكرامة في سبيل الشهوات: (وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون[٣]). أو الثروة التي تجمع بالطرق الملتوية التي تضر بمصالح الآخرين..[٤].

---

[١] المودودي، أسس الاقتصاد، ١٤٧-١٤٨.

[٢] المصدر نفسه، ١٤٨.

[٣] سورة آل عمران، ١٦١.

[٤] السيد محمد تقي المدرسي، الإسلام ثورة اقتصادية، ٢٦-٢٨.

-الإسلام يقدم الإنسان في أروع صوره:

إن الإنسان في الإسلام ليس إلهاً، وما هو كذلك بالحيوان، ولا بالشيطان، وإنما هو إنسان خلقه الله سبحانه وتعالى ليكون خليفة في الأرض وهو مخلوق فريد متميز، كريم رفيع القدر، في حين أن الجاهليات الحديثة تخبطت تخبطات شتى، فجعلت من الإنسان إلهاً، ثم جعلت منه في ذات الوقت حيواناً (بالمفهوم الداروينى) ثم جعلته في النهاية عبداً سلبياً خانعاً لا حول له ولا طول بإزاء آلهة المادة والاقتصاد والحتميات (بالمفهوم الشيوعي).

إن الإسلام يضع الإنسان في موضعه الحق الذي لا ينحرف به ولا يتخبط تخبط الجاهليات الحديثة[1].

المطلب الثالث: شهادة الفطرة على عدل الإسلام وجور المذاهب الأخرى:

إن الذين يخالفون عن قانون الفطرة، لا يمكن أن يمضوا بلا عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات الأرض، ورخاء العيش، ومضاعفة الدخل، والضمانات المادية الخيالية.

فللحياة الإنسانية قوانينها الفطرية الصارمة التي لا تجامل ولا تتخلف، ولا تلين. ولقد حذر الله سبحانه عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين. وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه، المتمشي مع سنته في الكون، فلا تكون لهم من عواقبها نجاة[2]: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين[3]).

-حل المشكلات والمعضلات:

هناك قواعد مهمة وأساسية لحل مشكلات ومعضلات الحياة الاقتصادية وغيرها في الإسلام:

١. أول قاعدة أساسية يراعيها الإسلام في حله لكل ما في حياة الإنسان من المشاكل والمعضلات، هي أنه يستبقي على مبادئ الحياة كما هي،

---

[1] العوايشة، موقف الإسلام، ٥٨-٥٨١.

[2] سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، دار الشروق، ط٨، ١٩٨٣م، ١٦٤.

[3] سورة الأنعام، ٤٤-٤٥.

ويعدل بها إلى طريق الفطرة كلما تطرأ إليها الفساد وحادت عن طريقها الفطري.

٢. والقاعدة المهمة الثانية التي يؤسس عليها الإسلام كل ما له من الإصلاحات في الحياة الاجتماعية، هي أنه لا يقتصر على تنفيذ عدد من الضوابط في نظام الاجتماع والمدنية على الوجه الظاهري فحسب، بل يبذل معظم جهوده ليربي الناس على مكارم الأخلاق ويصلح أفكارهم ويجلي عقولهم ويزكي نفوسهم حتى يجتث-هكذا-جذور الشر والخبث والفساد من منبتها في داخل النفس الإنسانية.

٣. القاعدة الثالثة: التي نراها سارية جارية في نظام الشريعة الإسلامية كلها هي أنها لا تتذرع بجبر الحكومة وقوة القانون إلا حيث لابد من التذرع بهما. يريد الإسلام أن يقضي على كل ما قد يختاره الإنسان في حياته الاقتصادية على وحي من الشيطان من المبادئ غير الفطرية[١].

ولكن يريد أن يقضي عليها بأكثر ما يمكن من الإصلاح الخلقي المنبعث من داخل الإنسان وبأقل ما يمكن من تدخل الحكومة وقوة القانون، فهو يحتمل أن يكون الإنسان حراً في كسب معاشه ويتمتع بحقوق الملكية على كل ما يكسبه بجده وجهده، ويكون بين الناس التفاوت في كفاءاتهم وظروفهم..فيحتمل الإسلام كل هذه المظاهر، ولكن لا يحتملها إلا مادامت متلائمة مع غاية الفطرة ومقصودها، ولذا فإنه يورد عليها قيوداً تقف في وجهها ولا تتركها تتجاوز حدود الفطرة وتسبب الظلم والطغيان والعدوان بين الناس..

فبعد هذا كله كيف ننظر إلى هذا النظام الاقتصادي المعتدل الذي وصفناه هنا بغاية من الاختصار. أفلا يزيل كل ما قد حدث في الملكية الشخصية من المفاسد والموبقات لأجل ما قد أثر فيها التعليم الشيطاني الخاطئ؟ فماذا يدعون إذاً إلى اختيار الفكرة الشيوعية أو الفاشية أو القومية ونستعين لإصلاح المفاسد الموجودة في نظامنا الاقتصادي الحاضر بأساليب مصطنعة لا تزيل شراً إلا لتحل مكانه شراً آخر أفظع وأشنع منه؟[٢].

-الإسلام يتمشى مع الفطرة في قضية الصراع:

إن الصراع هو ضرورة بشرية وعلى هذا النحو نفهم قوله تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض..[٣]).أي لغلب الشر وأصبح هو المسيطر على الأرض. نعم إن الصراع ضرورة بشرية مادام البشر هم

---

[١] المودودي، أسس الاقتصاد، ١٧٨-١٧٩، ١٨٧.

[٢] المصدر نفسه.

[٣] سورة، البقرة، ٢٥١.

وحياتهم هي هذه الحياة. والخالق سبحانه قد زود مخلوقاته بضرورتها ومادام الصراع ضرورة للبشر فقد زود البشر بالقدرة على الصراع، زودهم بها في أجسامهم وعقولهم وأرواحهم وكيانهم كله.

فهو إذ أعطاهم أجساماً تشتهي وعقولاً تفكر وأرواحاً تحلق ساعية إلى النور، وزودهم كذلك بالقدرة على التوفيق بين هذه جميعاً. ولن يقوم التوفيق إلا بشيء من الصراع، شيء من التدافع.حتى لنستطيع أن نقول: إنه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس.وحكمة الخالق سبحانه وتعالى قد اختصت التوفيق بين المخلوقات وضروراتها فجعلت بذرة الصراع موجود في داخل الكيان النفسي مادامت ضرورية لواقع الحياة، وبناءً على هذا الأمر فإن الإسلام يقر فكرة الصراع على أساس أنه ضرورة لازمة لمنع الفساد عن الأرض، ولإيجاد التوازن في الحياة البشرية.

وإنه لهذا السبب موجود في بيئة النفس الإنسانية. والفكرة الإسلامية فكرة متوازنة، فهي لا تشطط إلى أقصى اليمين المتمثل بالغرب الذي تقوم حضاراته على الصراع الخالص، الصراع الدائر بين الأفراد الذي لا تحكمه إلا الضرورة والصراع بين الأمم الذي لا تحكمه إلا غلبة الأسلحة.

كما أن الفكرة الإسلامية عن الصراع لا تشطط إلى أقصى اليسار والمتمثل بالشيوعية التي تزعم أن الصراع ذاته ينشئ الاضطرابات في المجتمعات البشرية، لذلك لابد من القضاء عليه حتى تستريح البشرية من ويلاته[1].

-تصور الإسلام للصراع:

إن الإسلام لا يعتبر الصراع هدفاً في ذاته ولا يقر كذلك أنه هو بذاته الذي ينشئ القلق والاضطراب في حياة البشر. الإسلام يفهم الصراع على أنه وسيلة للتوفيق بين المتناقضات، ووسيلة بعد ذلك لرفع الكائن البشري عن عالم الضرورة وعن وهدة الشر إلى حيث يستطيع أن يُحَلِّقَ سوياً متوازناً في عالم النور.

فهو لهذا يوازن الصراع داخل النفس. يوازنه بعنصر الحب. الذي يستطيع أن يوازن عنصر الصراع داخل النفس فيكبح من جماحه ويخفف من حدته، أو يستأنسه فلا يهيج إلا حيث ينبغي له أن ينطلق لتحطيم الشر والعناصر التي تقف في طريق الحب، وتمنع البشرية أن تستمتع بظلاله.

كما أن الإسلام يوازن مكان الصراع من الكيان النفسي والطاقات البشرية، فيعمل على توجيه الصراع بقدر إلى الداخل والخارج على السواء في الحدود

---

[1] العوايشة، موقف الإسلام، ٤٥٨-٤٦٠.

المعقولة.إن توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى الداخل ينظف النفس حقاً من شهواتها، ولكنه يقتل نشاطها وينشئ فيها سلبية معينة تجاه الحياة، سلبية لا تنتج ولا تقاوم الشر حين يقع، ولا تضيف شيئاً إلى رصيد الحياة الدائم، وكذلك العكس توجيه الصراع إلى الخارج ينشئ قوة تنتج وتنشئ جديداً كل يوم.وتتفتح وتتوسع ولكنها تقضي على نفسها بحماقة في نهاية الأمر لأنها تهمل تنظيف داخل النفس ولا تتعرض لتهذيب الشهوات[1].

-رصيد الفطرة:

وعندما فاء المجتمع الإسلامي، وطبق النظام الاقتصادي الإسلامي، استمعت الفطرة إلى الصوت القديم، الذي يخاطبها من وراء ركام الواقع الثقيل، في التيه العريض. وثابت إلى إلهها الواحد. وانتصرت الدعوة الجديدة على الواقع الثقيل!وعندما ثاب الناس إلى إله واحد. امتنع أن يعبد الناس الناس ووقف الجميع رافعي الرؤوس أمام بعضهم. يوم انحنت كل الرؤوس للإله الواحد القاهر فوق عباده.وانتهت أسطورة الدماء المتفاضلة، والأجناس المتفاضلة، ووراثة الشرف والحكم والسلطان..ووجدت الفطرة أن دعوة الله خير مما هي فيه.واشمأزت من الأساس الهابط الذي يقوم النظام الربوي عليه.

ومع مشقة الانتقال في الأوضاع الاقتصادية التي تقوم عليها حياة الناس، فقد كانت استجابة الفطرة أقوى من ثقل"الواقع"؛ وتطهر المجتمع المسلم من تلك اللوثة الجاهلية.

وكان ما كان. وفق سنة الله التي تتكرر كلما دعيت الفطرة فانتفضت من تحت الركام والأنقاض!..وهي تمثل واقع العقيدة والتصور. وواقع الأوضاع والتقاليد. وواقع الاقتصاد والتعامل..وهي أقوى ألوان الواقع الذي يراه من لا يدركون قوة العقيدة، وقوة الفطرة، وكأنه هو الحقيقة الساحقة التي لا قبل بها لفطرة ولا عقيدة!

إن الإسلام لم يقف مستسلماً عاجزاً مكتوف اليدين أمام هذا"الواقع". ولكنه ألغاه، أو بدله، وأقام مكانه بناءه السامق الفريد، على أساسه القوي العميق..والبشرية اليوم قد تكون أقدر على هذا الإتجاه الصحيح.بما استقر في تاريخها وفي حياتها من آثار ذلك المد الأول؛ الذي واجه أقسى المعارضة، ثم انساح في طريقه؛ وخلف من بعده أعمق الآثار[2].

---

[1] المصدر نفسه، ٤٥٨-٤٦٠.

[2] سيد قطب، هذا الدين، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٧، ١٩٨٢، ٥٦، ٦٤-٦٥.

خاتمة البحث ونتائجه والتوصيات:

١. إن الفردية والجماعية في الإسلام يلتقيان في النهاية في طريق واحد، ولا ينفصل أحدهما عن الآخر ولا غرابة في ذلك، فإن هذه تعتبر من الخطوط المزدوجة في كيان الإنسان ، هذان الخطان المرتبطان المتناقضان.إحساس الإنسان في فرديته وإحساسه بالميل للاجتماع بالآخرين والحياة معهم كواحد منهم.

٢. إن هذه الظاهرة ذات أثر بالغ في الحياة البشرية؛ فكيان المجتمع كله قائم على محاولة التوفيق بين هذين المتناقضين في الظاهر ومدى النجاح في عملية التوفيق، ولقد اضطربت كثير من النظم وكثير من الفلسفات بين هذه النزعة وتلك.

فبغضها يوسع دائرة الفردية حتى تصل إلى الأنانية المرذولة وتفكيك روابط المجتمع وتشتيت طاقاته، وبعضها يوسع الدائرة الجماعية حتى تقضي على كيان الفرد وتكاد تلغي وجوده؛ إذ تعتبره ذرة ضئيلة حقيرة تافهة لا يستمد كيانه إلاّ بوصفه فرداً في القطيع.

٣. إن الرأسمالية تقوم على أساس أن الفرد مقدس لا يجوز للمجتمع أن يحجر على حريته فهي تعارض الفطرة البشرية من حيث جعل الفرد هو الأصل، فتبيح له التملك مطلقاً بلا قيود أو حدود؛ ولو كان على حساب المجتمع بأكمله.

٤. إن الشيوعية تقوم على أساس أن المجتمع هو الأصل، والفرد لا كيان له بمفرده، فتضع الملكية في يد الدولة، وتحرم فيه الأفراد، وهي بذلك تعارض فطرة التملك التي أودعها الله في الإنسان، و تساوي بين أفراد المجتمع؛ ولا تساعد على وجود حافز للإنتاج والإبداع والتنافس المشروع بين الأفراد.

٥. إن الإسلام يعالج ويوازن بين كلتا النزعتين؛ فيغذيهما معاً ويجعلهما متساندتين بدلاً من أن تكونا متنازعتين. فيحتاج إليهما معاً؛ لأن الفطرة لا تستقيم بإحداهما دون الأخرى؛ ولذلك لا يكبت إي منهما ولا يزيلهما من الوجود، إن كان في استطاعة أحد أن يزيلهما من الوجود، فالإنسان الذي لا شخصية له في ذاته ولا وجود، لا ينشئ إلاّ مجتمعاً مستضعفاً لا يصلح إلاّ أن يحكمه (فرد) متسلط (دكتاتور) ثم يتهاوى حين يذهب ذلك الدكتاتور.

٦. إن الإنسان الذي تبرز شخصيته باغترار إلى حد الأنانية غير المقبولة كالطغيان مثلاً فإنه لا يستطيع أن يعيش في وفاق مع الجماعة، ولابد أن

يتشتت المجتمع ويؤول إلى البوار والخراب فلابد من إنسان متوازن في فرديته ومتوازن في ميله إلى الجماعة وتعاونه معها، وحينئذ يصبح المجتمع أشخاصاً حقيقيين لا أصفاراً ولا نكرات، لهم وجود واقعي حي متساندين في الوقت ذاته: (صفاً كأنهم بنيان مرصوص[1]). وذلك ما يسعى إليه الإسلام، وهو يصل إلى ذلك بوسائل شتى.

٧. إن البشرية اليوم تقف على حافة هاوية بسبب انسلاخها من منهج الله القويم وصراطه المستقيم.

وما الاتحاد السوفيتي منا ببعيد وكيف زال وصار أثراً وخبراً بعد أن كان حقيقة وواقعاً، ولكن سنة الله لا تتبدل في أخذ القرى وهي ظالمة، وسيأتي الدور على من بقي ممن يتبنون الرأسمالية وغيرها ممن ينحازون إلى الظلم والطغيان.

٨. إن ما يمر به العالم اليوم من نكبات وأزمات اقتصادية لدليل واضح على فساد هذه النظم الاقتصادية سواء كانت رأسمالية أو شيوعية، سواء كانت في الشرق أو الغرب؛ لأنها تشق طريقها بعيداً عن هدى الله ومنهجه وعن نظامه القويم.

٩. إن هذه المذاهب تتعارض مع الفطرة والطبيعة الإنسانية بل وطبيعة الأشياء. ولولا كارثة الخليج (أزمة الخليج) لانهارت مملكة أمريكا قبل روسيا لأنها كانت سبباً في تغذية اقتصادها وبقائها والمحافظة على كيانها، وقد أدت الحرب الباردة (الكلامية) بين أمريكا وروسيا في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات والستينات دورها الفاعل في التمهيد لهذا الانهيار الفظيع، وهاهي ذي تلوح لنا الأزمات الاقتصادية بصورها المروعة والمخيفة لأصحاب هذه المذاهب الفاسدة..

أخيراً: أوصي بالآتي:

١. على الباحثين في مجال الاقتصاد إعادة النظر في الأطروحات الاقتصادية القائمة في المجتمعات الإسلامية التي تتصادم مع الفكرة الاقتصادية الإسلامية.

٢. تجربة الاقتصاد الإسلامي منذ ظهورها في السبعينات قد بدأت تؤتي ثمارها، والمطلوب هو استغلال هذه الثمار والاستفادة منها في التطوير الاقتصادي.

٣. أخذ الدروس والعبر من الأزمة الاقتصادية العالمية، التي جاءت نتيجة للبعد عن منهج الله وهدي رسوله ﷺ في أمرها كله، وإعلان

---

[1] سورة الصف، ٤.

الحرب عليهما، فكان ذلك سبباً لشقائها وحرمانها وخسارتها وبوارها.

هذا ولولا الإطالة لشرحنا تلك النزعتين (الفردية والجماعية) شرحاً مستفيضاً تفصيلياً وبخاصة هذه الوسائل التي تؤدي إلى استجلاء المعاني السابقة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع:

١) جريشة علي محمد(الدكتور)، أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي،دار الاعتصام القاهرة، ١٩٧٧م.

٢) أبو الأعلى المودودي، أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة، مطبعة الأمان، درعون لبنان،ط٣-١٣٩١ه١٩٧١م.

٣) السيد محمد تقي المدرسي، الإسلام ثورة اقتصادية.

٤) شوقي أبو خليل، الإسلام في قفص الاتهام، دار الفكر، دمشق، ط٥ ١٤٠٢هـ١٩٨٢م.

٥) الغزالي، محمد، الإسلام في وجه الزحف الأحمر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

٦) سيد قطب، الإسلام ومشكلات الحضارة، دار الشروق، بيروت القاهرة، ط٨، ١٩٨٣م.

٧) عبد الغني عبود(الدكتور)، الإيديولوجية والتربية، دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٨٠م.

٨) بشير العوف، اشتراكيتهم وإسلامنا، مؤسسة الإنتاج الطباعي، بيروت، ط١-١٩٦٦م.

٩) صادق العُبَادي، الاقتصاد الإسلامي.

١٠) أحمد أحمد إبراهيم(الدكتور)، الاقتصاد السياسي، المطبعة الأميرية بولاق،١٩٣٥م.

١١) عبد الحليم محمود(الدكتور)، أوربا والإسلام، دار الشعب، القاهرة.

١٢) منير عطاء الله سليمان، ومحمود عبد الرزاق شفشق(الدكتور)، تاريخ التربية، دار النهضة العربية، ١٩٦٨م.

١٣) وهيب إبراهيم سمعان، (الدكتور)،الثقافة والتربية في العصور الوسطى، دار المعارف، مصر،١٩٦٢م.
١٤) محمد قطب، جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، القاهرة، ١٤٠٨هـ١٩٨٨م.
١٥) جريشة، علي محمد(الدكتور)، حاضر العالم الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٠هـ١٩٩٩م.
١٦) فتحي يكن، حركات ومذاهب في ميزان الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٠، ١٩٨٣م.
١٧) الشيشاني، عبد الوهاب عبد العزيز(الدكتور)، حقوق الإنسان وحرياته الأساسية في النظام الإسلامي والنظم المعاصرة، مطابع الجمعية العلمية الملكية،١٩٨٠م.
١٨) بروتوكولات حكماء صهيون ترجمة محمد خليفة التونسي(الخطر اليهودي)مطبعة السنة المحمدية ١٩٧٢م.
١٩) سيد قطب، دراسات إسلامية، دار الشروق، بيروت القاهرة، ط٦ ، ١٩٨٣م.
٢٠) عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، ١٩٤٦م.
٢١) محمد قطب، شبهات حول الإسلام، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط٦.
٢٢) دندل جبر، الشيوعية منشأ ومسلكاً، مكتبة المنار، الأردن.
٢٣) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، دار الشروق، بيروت القاهرة، ط٩.
٢٤) سفر الحوالي(الدكتور)، العلمانية، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٨٢م.
٢٥) محمد البهي(الدكتور)، الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر مشكلات الأسرة والتكافل، دار الفكر، طرابلس، ليبيا، ط١، ١٩٧١م.
٢٦) رالف فلوولنج، الفلسفة الشخصانية، (فلسفة القرن العشرين)، ترجمة عثمان نوية، مراجعة: د.زكي نجيب محمود. مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٣م.
٢٧) محمد باقر الصدر، فلسفتنا، دار الفكر، بيروت، ط٤، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

٢٨) عبد الرحمن حبنكة الميداني، الكيد الأحمر، دار الفكر، دمشق، بيروت، ط١.
٢٩) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار القلم الكويت، ط١٣، ١٤٠٢هـ١٩٨٢م.
٣٠) سعد عبد الفتاح عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية،١٩٦٣م.
٣١) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، القاهرة بيروت، ١٩٨٨م.
٣٢) سعد ماهر حزة(الدكتور)، المقدمة في اقتصاديات التبعية والتنمية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٧م.
٣٣) أحمد العوايشة، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ،دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع،١٩٨٢م
٣٤) الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط٢-١٤٠٩هـ١٩٨٩م.
٣٥) سيد قطب، هذا الدين، دار الشروق، بيروت القاهرة، ١٩٨٢م.
٣٦) رتشارد كتشام، هذه هي الشيوعية، ترجمة: عزت فهيم، دار الكتب المصرة، شارع القصر العيني، ط٣.
٣٧) البيان،(مجلة)، السنة الثالثة والعشرون، العدد(٢٥٣)، رمضان١٤٢٩هـ سبتمبر٢٠٠٨م.

المنصور بن أبي عامر المعافري ودوره في بلاد الأندلس

٣٢٨هـ – ٣٩٢هـ

د.سالم حسين عبد الخضر المرشدي

أستاذ مشارك

كلية الآداب – جامعة الحديدة